الرقم الدولي الموحد للدوريات 8987 – 0330

السنة الحادية والخمسون | العددان 193–194 | أفريل /نيسان 2024

منشورات :

مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات – تونس

المجلة التاريخية المغاربية

مجلـة محكّمـة

تأسست في أول جانفي 1974

مؤسسها ورئيس تحريرها أ. د. عبد الجليل التميمي

الأستاذ المتميز بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس

– لا تتحمل المجلة مسؤولية التحاليل والآراء الواردة في البحوث المنشورة فيها.

– تصدر المجلة سنويًا في أربعة أعداد، وهي مفتوحة لكل المساهمات العلمية بالعربية والفرنسية والإنقليزية والإسبانية.

– قامت بتصفيف هذه المجلة (**السيدة هندة الغربي**) على الوحدة الإعلامية بالمؤسسة وكان السحب في 100 نسخة بالمغاربية للطباعة والإشهار–تونس في شهر أفريل / نيسان 2024.

تطلب المجلة من العنوان التالي:

مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات الكائن بـ :

عمارة الامتياز –المنطقة العمرانية الشمالية– الشرقية 1/ تونس 1003

الهاتف من تونس : 444 231 71

من الخارج : 444 231 71 00216

الفاكس من تونس : 77 66 23 71 من الخارج : 77 66 23 71 00216

البريد الإلكتروني : Email : fondationtemimi@yahoo.fr ; fondationtemimi@gnet.tn/

منشورات

مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات

مؤسسها ومديرها

الأستاذ المتميز د. عبد الجليل التميمي

من نشاط المؤسسة :

أنشئت هذه المؤسسة منذ ثمانية وعشرين سنة بمدينة زغوان من قبل د. عبد الجليل التميمي، الأستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس، وانتقل مقرها إلى تونس قبل سنة 2004. ومن أهدافها :

– إنشاء بنوك معلومات حول التاريخ المعاصر المغاربي والعربي والتركي والذاكرة الوطنية التونسية الأسبوعية وتاريخ الولايات العربية أثناء العهد العثماني والبحث العلمي والآثار العثمانية والدراسات الموريسكية–الأندلسية، بما في ذلك فترة حكم الرئيس الحبيب بورقيبة، وقاعدة بيانات للإرشادات الببليوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.

– إنشاء مكتبة في هذه الاختصاصات الحيوية من المعرفة وتضم اليوم 21.000 عنوانا هي رصيد مكتبة الأستاذ التميمي الشخصية، هذا فضلا عن قسم الدوريات.

– إرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والدوليين.

– تشرف المؤسسة على نشر دوريتين أكاديميتين هي : **المجلة التاريخية المغاربية** التي بدأ صدورها منذ 1 جانفي 1974. وصدر العدد المزدوج 193–194 في أفريل / نيسان 2024، **والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، وحيث سيصدر العددان 69–70 في ديسمبر/كانون الأول 2024.

كما نشرت المؤسسة 282 كتابا في كل تخصّصاتها وبعدة لغات. وهذا ما جعل هذه المؤسسة الأكاديمية الخاصة، تعد اليوم من أنشط المخابر المعرفية على الصعيدين العربي–الإسلامي والدولي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتم ذلك دون ضجيج إعلامي ولا دعم من أية جهة كانت. وقد نظمت المؤسسة مئات المؤتمرات العربية والدولية والحوارات المتعددة الاختصاصات ومنتديات الثورة التونسية، وتوفقت في إثراء الحوار الأكاديمي لمئات المتخصصين العرب والدوليين.

الرقم الدولي الموحد للدوريات 8987 – 0330

السنة الحادية والخمسون العددان 193-194 أفريل /نيسان 2024

منشورات :

مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات – تونس

عدد تكريمي

للأستاذ المنصف وناس

كشاف الموضوعات

القسم العربي

الصفحة

بحوث مختلفة :

-

انتفاضة مارغريت بالجزائر (26 أفريل 1901) وانتفاضة القصرين- تالة بتونس (26-27 أفريل 1906): محاولة في المقارنة

د. فوزي السباعي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس
مخبر LERIC

تواترت بشمال إفريقيا في بداية القرن العشرين أحداثا مهمّة وحّد بينها انفجار التعصّب الديني وانفلات العنف ضدّ الأوربيين: انتفاضة مارغريت بالجزائر (أفريل 1901)، انتفاضة القصرين-تالة بتونس (أفريل 1906)، حادثة قرية دانشواي بمصر (جوان 1906) وحادثة مقتل الطبيب الفرنسي موشان Emile Mauchamp بمرّاكش (مارس 1907).

حاولت الصحافة الانكليزية ربط هذه الحركات المعزولة بيقظة الإسلام وتأثير الجامعة الإسلامية، وعمدت الصحف الفرنسية إلى تجاهل منطلقاتها الوطنية المعادية للاستعمار واختزالها في تأصّل التعصّب الديني ([1]). ووجدنا من جهتنا تشابها مثيرا بين انتفاضتي مارغريت والقصرين، وهو أمر تجاهلته مجمل الدراسات التي خصّصت للحركتين، وذلك على الرغم من الإشارات التي وردت ببعض الصحف آنذاك.

تفطنت جريدة "لوطون" الباريسية بصفة مبكّرة إلى التشابه الكبير بين الحركتين فبادرت بالمقارنة بينهما ([2])، واعتبرت إحدى المجلات الاستعمارية أنّ انتفاضة القصرين وتالة تبدو للوهلة الأولى وكأنّها تكرار غريب لانتفاضة مارغريت، وبيّنت مسوّغات هذه الفكرة ونسبيّتها ([3])، وهو نفس الرأي الذي تبنته أيضا جريدة "تونس

---

(1) *Le Temps*, 23 août 1906, « Le Panislamisme en Afrique ».
(2) *Le Temps*, 29 avril 1906, « En Tunisie ».
(3) *La Quinzaine Coloniale*, 10 mai 1906, « L'échauffourée de Thala ».

الفرنسية" ([4]). إلّا أنّ هذه المقارنات، على ريادتها وأهميّتها، كانت جزئيّة وغير مكتملة.

فإلى أيّ مدى يمكن أن نذهب في هذه المقارنة إلى أقصاها من دون أن نقفز على الخصوصيات المرتبطة بالإطار المحلي، والظروف المادية التي أنتجت الحركتين؟ وإلى أيّ حدّ يمكن أن تقودنا هذه المقارنة إلى الوصول لفهم أعمق للانتفاضتين، وخصوصا للذهنية المحلية وللظاهرة الاستعمارية في البلدين؟

أوّلا: انتفاضتان محليتان متشابهتان من حيث الطبيعة والشكل التنظيمي:

1- خصائص مشتركة رغم اختلاف الإطار:

اندلعت انتفاضة مارغريت يوم 26 أفريل 1901، ودامت يوما كاملا. وبعد خمس سنوات، وفي نفس التاريخ بالضبط، جدّت وقائع القصرين، وتواصلت صبيحة اليوم الموالي (27 أفريل 1906) في مدينة تالة. والملاحظ أنّ جلّ الانتفاضات الفلّاحية بالجزائر وتونس كانت تقع عادة في فصل الربيع، ولعلّ الأمر أكبر من مجرّد مصادفة. ([5]) وقد طرحت إحدى المجلات الفرنسية فرضيّة فريدة، نكتفي هنا بعرضها وإن كنّا نستبعدها جدّا، ومفادها أنّ الأقليّة المسيطرة على الوليّ عمر بن عثمان بالقصرين، كانت تخطّط للاستفادة من حضوره بين الفراشيش من أجل تحقيق منافع ماديّة لصالحها عن طريق الإغارة والنهب والسلب، فاختارت بصفة مدروسة وواعية اعتماد نفس تاريخ حركة مارغريت وتبنّي نفس أشكالها التنظيميّة، وذلك من أجل التمويه والتغطية على الطابع الحقيقي لمشروعها. ([6])

جدّت وقائع انتفاضة ريغة في قرية مارغريت (عين التركي حاليا) ونواحيها (تيزي أوشير وطريق مليانة)، وتتبع إداريا بلديّة حمّام ريغة من دائرة مليانة بمقاطعة الجزائر

([4]) *La Tunisie Française*, 8 juin 1906, « Marguerritte-Kasserine ».

([5]) *La Tunisie Française*, 5 mai 1906, « Kasserine-Thala ».

نذكر من ذلك انتفاضة أولاد سيدي الشيخ (أفريل 1864) وانتفاضة بوعمامة (أفريل 1881)، وتقابلها بالبلاد التونسية انتفاضة القبائل بقيادة علي بن غذاهم الماجري (ربيع 1864) وانطلاق المقاومة المسلحة للاحتلال العسكري الفرنسي سنة 1881.

([6]) *La Quinzaine Coloniale,* 10 mai 1906, « L’échauffourée de Thala ».

(ولاية عين الدفلى حاليا). تقع مارغريت حوالي 120 كم جنوب غربي مدينة الجزائر على الطريق الحديدي الرابط بينها وبين مدينة وهران. تحدّها من ناحية الشرق البلدية المختلطة حمام ريغة، وتوجد بينهما قرية تيزي أوشير التي انطلقت منها أحداث الانتفاضة، وهي على بعد 3 كلم من مارغريت و7 كم من حمام ريغة. أمّا من ناحية الغرب، فنجد على بعد 8 كم من مارغريت مدينة مليانة التاريخية ([7]). ودارت وقائع انتفاضة الفراشيش في منطقة جغرافية أكثر امتدادا وتشتّتا (قيادة الفراشيش التابعة للمراقبة المدنية بتالة)، إذ تمتد من فوسانة مركز انطلاق المنتفضين إلى بولعابة (برج الشعانبي قديما) والقصرين الواقعتين جنوبيّها، واتّجه المنتفضون في اليوم الموالي شمالا من فوسانة نحو تالة. وتوجد القصرين (مركز الولاية حاليا) في الوسط الغربي للبلاد التونسية قريبا من الحدود الجزائرية، وهي تبعد حوالي 280 كم عن مدينة تونس و130 كم عن الكاف و50 كم عن تالة.

وعلى الرغم من انفتاح القصرين على الشرق الجزائري (تبسّة)، فإنّه لا يوجد اتّصال حقيقي ومباشر مع مجال قبيلة ريغة البعيد. ولا ينفي ذلك تشابه المنطقتين من حيث الظروف الطبيعية، إذ تكثر فيهما الجبال المرتفعة ذات المنحدرات الوعرة، وتصل أعلى قمّة بكلّ من جبل زكار وجبل الشعانبي إلى 1500 م. وهي مناطق ذات مناخ قاس شديد البرودة وكثير الثلوج شتاء، تتعدّد بها الأودية والعيون والمستنقعات، ويتدرج غطاؤها النباتي من الغابات إلى الأحراش الكثيفة بنواحي مارغريت، وإلى النباتات السباسبيّة بجهة القصرين. وتتميّز نتيجة وجود هذه الحواجز الطبيعية بالعزلة وصعوبة المواصلات التي تكاد تقتصر على بعض الفجاج أو الممرّات الضيقة (فج تيزي أوشير وخنقة بولعابة)، لذلك لعبت تاريخيا دور الملاجئ المحصّنة. ([8]) ويتعلّق الأمر في كلتا الحالتين بمنطقة استيطان متأخر يقلّ فيها عدد المعمّرين، فقرية مارغريت الاستعماريّة المتخصّصة في زراعة الكروم لم تحدث إلّا في

(7) *La Dépêche Algérienne*, 16 décembre 1902, « L'affaire de Margueritte. Avant le procès ».

(8) Monchicourt, Charles, *La région du Haut-Tell, en Tunisie (Le Kef, Téboursouk, Mactar, Thala) : essai de monographie géographique*, Armand Colin, Paris, 1913, p. 145-146.

سنة 1881 ([9])، ولم تكن تضمّ سنة 1901 سوى 221 فرنسيّا و163 من الأوربيين ([10]). وتوجد بالقرب منها قرى أو مستوطنات استعماريّة، بعضها سابق لإحداثها، ونذكر منها Affreville (خميس مليانة) وVesoul Bénian (عين البنيان) وChargarnier (واد زبوج)، وكذلك محطة عدلية Adélia التي سهّلت التسرّب الاستعماري للمنطقة عبر خطّها الحديدي. ([11]) أمّا في ناحية تالة والقصرين فالحضور الاستعماري أقلّ أهميّة، والمعمّرون أكثر عزلة، ولا وجود لقرى استيطانية حقيقية. تفيد إحصائيّات سنة 1906 أنّ عدد الأوربيين بقيادة الفراشيش كان في حدود 140 شخصا منهم 79 فرنسيّا (51 بقرية تالة و28 بباقي وطن الفراشيش). ([12]) ويقتصر الحضور الاستعماري في نواحي القصرين على 3 ضيعات استعمارية ومركز لتجويد الخيول وبعض المناجم والأفران الصغرى، ([13]) ويعتبر لوسيان صال (Lucien Salles) أكبر المعمّرين بجهة القصرين وأكثرهم صلفا ونفوذا، ولكنّ أملاكه (200 هك) لا تقارن بحجم أملاك كبير المعمّرين الفرنسيين بمارغريت مارك جينوديه (Marc Jenoudet) المقدّرة بحوالي 1200 هك ([14]).

([9]) بدأ التفكير في إنشاء قرية استعمارية بموضع عين التركي منذ سنة 1878، وكان من المبرمج أن تحمل اسم "زكار" Zaccar أو "الزكار" Le Zaccar، غير أنّ الأشغال لم تبدأ إلّا في سنة 1881 وتواصلت إلى سنة 1884، وعرفت منذ بداية تأسيسها باسم مارغريت نسبة إلى الجنرال والمستعرب الفرنسي جان أوغست مارغريت الذي شارك في غزو جهة مليانة.

([10]) Phéline, Christian, « Deux cas locaux de résistance paysanne à l'extension des terres de colonisation : la révolte de Margueritte (1901) et l'affaire de Beni-Dergoun 1895-1923 », in : Guignard, Didier (dir.), *Propriété et société en Algérie contemporaine. Quelles approches?*, IREMAM, Aix-en-Provence, 2017.

([11]) Busson, Henri, « Le développement géographique de la colonisation agricole en Algérie », *Annales de géographie*, t. 7, nº 31, 1898.

([12]) Monchicourt, Charles, *La région du Haut-Tell…op. cit.*

([13]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين- تالة (1906)**، دار محمد علي للنشر، صفاقس، ط. 2، 2011، ص. 132-133.

([14]) Phéline, Christian, *L'aube d'une révolution. Margueritte, Algérie, 26 avril 1901*, Privat, Toulouse, 2012.

ارتبطت الحركتان باسمي قبيلتين، إذ تعرف الأولى في الذاكرة المحلية باسم "زازة ريغة"، وعرفت الثانية باسم "خطرة الفراشيش". تشترك قبيلتا ريغة والفراشيش في أصولهما البربرية الغالبة، وفي نزعتهما الاستقلالية عن السلطة الحاكمة التركية العثمانية، وخصوصا في طبعهما المحارب. تنقسم قبيلة ريغة الكبرى إلى عدّة أقسام موزّعة على مناطق جزائرية مختلفة: في نواحي سطيف نجد ريغة الشاوية أو ريغة التلول التي انشطرت إلى فرعين: ريغة القبالة وريغة الظهارة، وفي نواحي المدية وجبال تيطري نجد فرعا آخر من ريغة هاجر إليها من الزكار الغربي، كما نجد رواغة الصحراء حول وادي ريغ بنواحي ورقلة، أمّا الفرع الذي يعنينا فهو المعروف باسم ريغة زكار ومجاله بين مليانة وحمّام ريغة ([15]). وكان هذا الفرع من ريغة معروفا بتمرّده الدائم على السلطة المركزية التركية العثمانية، وبعلاقاته المتوتّرة مع جيرانه (بني مناصر، بني مناد، بلديّة مليانة وقبيلة عدلية) ممّا تسبّب في تهجيره بين 1810 و1815 إلى الغرب الوهراني، ولم يعد إلى سفوح زكار إلّا مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ([16]). ونجحت هذه القبيلة، التي كانت تعيش على الإغارة والنهب، في استرجاع أراضيها التي صودرت منها خلال مرحلة الشتات، بل وتوسيعها على حساب عدلية بعد أن تمكّنوا من إبادة هذه القبيلة الصغرى تقريبا ([17]). وعندما تمّ التنظيم الإداري لقبيلة ريغة سنة 1868، أصبح مجالها يحمل اسم "دوّار عدلية" ([18]).

تتميّز قبيلة الفراشيس من جهتها بكونها قبيلة غوّارة مشاكسة وممانعة للسلطة، إذ تنتمي مثل جارتها ماجر إلى الصفّ الباشي المعادي في الغالب للمخزن الحسيني. والفراشيش قوم غلاظ أشدّاء شاركوا في انتفاضة القبائل سنة 1864 وفي المقاومة

([15]) Accardo, F., *Répertoire alphabétique des tribus et douars de l'Algérie*, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1879.

([16]) Julienne, « Les Rir'a de la subdivision de Miliana », *Revue Africaine*, v. 1, nº 4, 1857, p. 281.

([17]) Jenoudet, M., « Monographie de la tribu des Righas », *Bulletin de la société de géographie d'Alger*, v. 1, nº 1, 1896, p. 41- 44.

([18]) Accardo, F., Répertoire alphabétique des tribus…*op. cit.*

المسلحة للاحتلال الفرنسي سنة 1881، وكانت تربطهم علاقات متوتّرة مع قبائل الصفّ الحسيني مثل الهمامة ومع القبائل الجزائرية مثل النمامشة وأولاد يحي بن طالب ([19]). اعتبرت جريدة "لوطون" أنّ الفراشيش أقرب القبائل التونسيّة إلى طباع القبائل الجزائرية، ورأى المقيم العام أنّهم الأكثر عرضة لتلقّي التأثيرات الخارجية باعتبار أنّ أغلبهم أمّيون وطباعهم حادّة وعنيفة ([20]). وتنقسم قبيلة الفراشيش إلى ثلاث برادع متوازنة من حيث القوّة: أولاد وزّاز وأولاد ناجي وأولاد علي، وقد شاركت الفرق المكوّنة لهذه العروش بدرجات متفاوتة في الانتفاضة، إذ تعلّق الأمر بمشاركة أفراد ينتمون إلى فرق مختلفة، أمّا النواة الصداميّة المتصلّبة (القدادشة) فتكوّنت بالخصوص من أفراد ينتمون إلى فرقة الحنادرة من أولاد وزّاز وفرقة أولاد الحاج من أولاد ناجي ([21]). وتكوّنت الطليعة المتشدّدة في قبيلة ريغة (القناديز) من أفراد ينتمون إلى فرقة بوحايا المقيمة في مرتفعات تيزي أوشير، والتي ظهرت عليها قبيل انتفاضة 1901 علامات لم تثر الاهتمام في وقتها مثل الابتعاد عن مخالطة المسيحيين والتشدّد في إقامة الطقوس الدينية، حتّى أنّ بعض المعمّرين أطلقوا على معقلهم اسم "دير بوحايا"([22]). وانضمّ إليهم بعض الأفراد من فرقة البحارة، وبدرجة أقلّ من فرقة قربوس ([23]).

نمرّ بعد تحديد الإطار الزماني والمكاني، إلى إبراز الخصائص العامّة المشتركة للحركتين، ونذكر منها:

– الشكل التنظيمي العتيق: نجد على رأس الحركتين وليّ مزعوم أو درويش مجذوب ينجح في إثارة بعض الأفراد الناقمين والمتعصّبين والمنتمين إلى قبيلة واحدة،

---

(19) Monchicourt, Charles, *La région du Haut-Tell…op. cit.*

(20) Ministère des Affaires Etrangères, *Rapport au président de la République sur la situation de la Tunisie en 1906*, Société Anonyme, de l'Imprimerie Rapide, Tunis, 1907, p. 16.

(21) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين…نفس المرجع**، ص. 164.

(22) *La Démocratie Algérienne*, 15 décembre 1902, « L'affaire de Margueritte ».

(23) تقرير ماريل Marel المنشور في الملحق الخاص بجريدة "الدبيش الجيريان" بتاريخ 24 أكتوبر 1901.

فيقومون بمهاجمة المعمّرين الأوربيين، يقتّلون بعضهم بشراسة ويعمدون إلى أسر من اعترضهم بعد إجبارهم على الاعتناق الشكلي للإسلام. وتحصل في مجرى ذلك عمليّات عنف ونهب منفلتة.

– الطابع المحلي: اعتبر ماريل Marel المتصرّف الإداري لبلدية حمّام ريغة المختلطة أنّ حركة مارغريت مجرّد حدث معزول ذو طابع محلي بحت، وأنّها لم تكن مهيّأة لتكون منطلقا لانتفاضة عامة وشاملة.([24]) وتوصّل المعتمد لدى الإقامة العامة الفرنسية بتونس البارون دانتوار D'Anthouard إلى نفس الخلاصة معتبرا أنّ حركة القصرين تركزت في منطقة صغيرة، وهي بالتالي حادث محلي لم تكن له تداعيات على باقي أنحاء البلاد.([25]) وقد حاول غلاة المعمّرين بالجزائر وتونس أن يشككوا في هذا المعطى، فقدّموا عدّة مؤشرات بعدية ترجّح فرضيّة التخطيط المسبق لتفجير حركة واسعة وشاملة.([26])

– سرعة تلاشي الحركتين: دامت حركة مارغريت يوما واحدا، واضمحلت بمجرّد الالتقاء بجنود التيرايور في مساء يوم 26 أفريل 1901 بعد 8 ساعات متواصلة من خروج المنتفضين، أمّا حركة الفراشيش فلم تستغرق وقتا أطول رغم أنّها دارت على مرحلتين يومي 26 و27 أفريل 1906، وانحلت نهائيا بعد أوّل تصادم مع الأوربيين المتحصنين في مقرّ المراقبة المدنية بتالة.

– محدودية عدد المشاركين: انطلقت حركة مارغريت بعدد ضئيل جدّا من المنتفضين لم يتجاوز في أقصى الحالات 15 نفرا، وتضخّم العدد تدريجيّا لا سيّما بعد أسر المتصرّف المساعد لحمّام ريغة "مونتاي" (Monteils) فوصل إلى 100

([24]) تقرير ماريل Marel...**نفس المصدر**.

([25]) تقرير البارون دانتوار الذي قدّمه أمام الندوة الاستشارية بتاريخ 7 ماي 1906 :

- Régence de Tunis, Protectorat français, *Procès-verbaux de la Conférence Consultative*, 30e session, mai 1906, Imprimerie Centrale, Tunis, 1906.

([26]) حول هذه المسألة انظر بالخصوص مداولات نوّاب الندوة الاستشارية خلال جلسة يوم 7 ماي 1906 المذكورة أعلاه، أمّا بالنسبة لحركة مارغريت فيمكن الرجوع إلى مقال:

- *La Dépêche Algérienne*, 19 mai 1901, « Autour d'une insurrection. Éléments d'enquête ».

مشارك عند مهاجمة ضيعة المعمّر "جينوديه" وحوالي 200 مشارك عند دخول قرية مارغريت، ليصل في نهاية الحركة إلى 400 مشارك حسب التقديرات الرسمية ([27]). وتفيد التقارير الإدارية أنّ عدد المجموعة التي هاجمت القصرين ينحصر بين 20 و30 شخصا، كما أنّ المجموعة التي شاركت في المسيرة نحو تالة كانت بنفس الحجم تقريبا مع وجود عدد كبير من الفضوليين الذين واكبوا الحركة من دون المشاركة الفعلية فيها ([28]). وتدلّ هذه الأرقام أنّ التحريض الديني الذي قام به يعقوب ومساعده الثعالبي لم يستقطب سوى أقليّة من الأتباع المتشدّدين لم يتجاوز 10% من إجمالي أهالي قبيلة ريغة التي كانت تعدّ آنذاك حوالي 3 آلاف نسمة، وقد شعرت الإدارة الاستعمارية بالارتياح عندما تأكدت أنّ المنتفضين ينتمون إلى ريغة في حين أنّ التقارير الأولى نسبت الحركة إلى قبيلة بني مناصر القويّة التي تعدّ 30 ألف نسمة ([29]). وكانت الفرق الأربعة القريبة من مقرّ إقامة عمر بن عثمان (قماطة والحنادرة والحراكتة والحوادث) تعدّ 2900 رقبة من الذكور الراشدين المسجلين في دفاتر المجبى، ويبلغ عدد المسجلين بالنسبة إلى إجمالي قبيلة الفراشيش 8900 رقبة ([30])، وهو ما يعني أنّ حجمها الديمغرافي لا يقارن بحجم قبيلة ريغة زكار إذ يصل إلى حوالي 45 آلف ساكن. ويفسّر التضخّم التدريجي لحجم المشاركين في انتفاضة مارغريت بوجود عدّة عوامل لم تتوفر في القصرين أو في تالة، من ذلك أنّ حركة مارغريت كانت في شكل مسيرة استعراضيّة تواصلت على امتداد عدّة كيلومترات، وكان المنتفضون يحرصون على إجبار بعض العابرين وروّاد المقاهي على السير معهم، كما أنّ ضيعات المعمّرين ومحلاتهم كانت عديدة ممّا أغرى البعض بالمشاركة في عمليّات النهب والسرقة. وكانت نجاحات الحركة ظاهرة للعيان من خلال وجود

([27]) تقرير ماريل Marel...**نفس المصدر**.

([28]) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة E، الصندوق 550، الملف 16، الملف الفرعي 18: (تقارير ومذكرات ومراسلات حول حوادث الفراشيش): مراسلة المعتمد لدى الإقامة العامة إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 11 جوان 1906.

([29]) *Akhbar*, 7 décembre 1902.

([30]) Ministère des Affaires Etrangères, *Rapport au président de la République…op. cit.*

بعض رموز الإدارة المحلية والاستعمارية ضمن موكب الأسرى المصاحب للمنتفضين، وهو ما يشجع بعض المترددين على الالتحاق بالحركة.

– محدوديّة الأسلحة المستعملة: رغم كلّ ما قيل عن انتعاش تهريب السلاح، وعن دور الانكليز في توفيره، فإنّ المنتفضين في مارغريت والقصرين لم يهتموا بتسليح أنفسهم قبل الخروج، إذ اكتفوا باستعمال العصيّ والخناجر وبعض البنادق القديمة، ونجحوا خصوصا في مارغريت في الاستحواذ على عدّة أسلحة وخيول على حساب المعمّرين وبعض ممثّلي السلطة الإدارية والأمنية. وأهملوا أيضا بعض المسائل التنظيمية المهمّة مثل قطع خطوط التلغراف وغيرها. ويرجع ذلك في جانب منه إلى وصول حالة التخمّر الديني والجذب الطرقي إلى ذروتها ممّا جعل المنتفضين يندفعون بوجوه مكشوفة وبأسلحة بدائيّة، وذلك لأنّ من قام بدور الوليّ أو المجذوب في مارغريت والقصرين أقنعهم بأنّ أسلحة الأوربيين لن تؤثّر فيهم.

– الطابع الفجائي: اعتبرت جريدة "لوطون" الباريسية أنّ الطابع الفجائي هو النقطة الأساسية التي تشترك فيها انتفاضة القصرين مع انتفاضة مارغريت، واعترفت السلطة الاستعمارية في البلدين أنّ الحركة فاجأتها ولم تجد تبريرا مقنعا لذلك، وهو أمر طبيعي لأنّه لا يدلّ في كلّ الأحوال إلّا على عجز الإدارة الفرنسية أو تواطئ الإدارة المحلية([31]). ونعتقد أنّ ذلك كان خيارا واعيا من المنظمين للحركتين، إذ اعتمدوا عنصر المباغتة على غرار التقاليد البدوية في الغارات الخاطفة. وكان ذلك ممكنا نتيجة توفر عنصر الشحن العاطفي والتحريض الديني، الذي أدّى إلى التحوّل من الحرص على إظهار حالة الورع الديني وانتظار الخلاص عن طريق "المهدي المنتظر" أو "صاحب الساعة" (مولى الساعة) كما يسمّيه الجزائريون، إلى المبادرة بالفعل تحت تأثير حالة الجذب، وهنا يكون وجود المحرّك الروحي، أي الوليّ أو الشخص الذي تقمّص دور الوليّ، مهمّ جدّا في حصول هذا التحوّل. ولا ننفي وجود بعض العوامل الظرفية التي فرضت على المنتفضين التحرك السريع والمباغت، فالمشاركون في حركة مارغريت كان من مصلحتهم التحرك بسرعة قبل إجراء

([31]) *Le Temps*, 29 avril 1906, « En Tunisie ».

الاستعدادات الكافية لأنّ معظمهم كان على اتّصال يومي بالمعمّرين، وبالتّالي فإنّ أمرهم كان سينكشف لا محالة إذا طالت التحضيرات أكثر من اللازم ([32]). وربّما استغلّ ثوّار القصرين وجود كلّ مشايخ الفراشيش في اجتماع مهني بتالة ليعجّلوا بالخروج لا سيّما أنّ أخبارهم بدأت تنتشر في صفوف الأهالي ومنهم عمّال منجم القلعة الجرداء ([33]). ومن ناحية أخرى، فإنّ هذا الثوران المفاجئ والعنيف يدلّ على وجود حالة من الغضب الحقيقي في صفوف الأهالي نتيجة عدّة أسباب سنذكرها لاحقا، لذلك اعتبر "روير" (Rouire) أنّ حركة ريغة لا تعتبر مفاجئة بل منتظرة ويمكن فهمها بسهولة من قبل كلّ مطّلع على حقيقة الوضع الاستعماري بالجزائر، كما أنّها ليست حدثا محليا معزولا لأنّها كانت من الممكن أن تندلع في أيّ مكان آخر.([34]) وبيّن بول فينيي دوكتون Paul Vigné-d'Octon أنّه لا يستغرب من تفجّر بعض الانتفاضات على غرار ما وقع بمارغريت والقصرين، بقدر ما يستغرب من عدم اندلاع انتفاضات مشابهة ومتعدّدة في أماكن أخرى من البلدين.

صفوة القول، كانت حركة ريغة – وبعدها حركة الفراشيش– تمثّل بخصائصها هذه، حركة من نوع جديد بالنسبة إلى الفرنسيين الذين تعوّدوا على مواجهة حركات واسعة وشاملة وطويلة المدى، وهو ما يفسّر الصعوبة التي اعترضتهم في فهمها وفي تحديد طبيعتها.

2– انتفاضة بروليتارية وانتفاضة فلّاحية:

عندما اندلعت حركة مارغريت ردّد بعض الأوربيين المصدومين عبارة "الثورة" التي تعبّر عن خشيتهم من حصول حركة ثوريّة واسعة وكاسحة ([35])، ولكنّ تمثّلهم لمصطلح الثورة يكون أحيانا مختلفا عن المعنى العام السائد ولا يتضمّن التغيير

([32]) تقرير ماريل Marel...**نفس المصدر**.

([33]) الزيدي، علي، "انتفاضة الفراشيش سنة 1906"، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 49–50؛ 1988، ص. 142.

([34]) *Le Petit Méridional*, 26 janvier 1903, Rouire, A. M-F., « Les indigènes en Algérie ».

([35]) Bencherif, Ahmed, *Le procès des insurgés de Margueritte (Algérie)*, L'Harmattan, Paris, 2021.

الجذري والعنيف للهياكل القائمة بواسطة حركة منظمة، وهو ما توحي به شهادة كبير المعمّرين جينوديه أمام المحكمة التي ذكر فيها: قال لي أحد العمّال "هناك ثورة"، وهو نفس ما ذكره لي القايد عند خروجي. أشدّد على كلمة "ثورة"، فلو قيل لي "هناك انتفاضة" « Insurrection » لفهمت خطورة الوضع ولتسلحت...الثورة تعني بالنسبة إلي مجرّد خصومة أو معركة بين العمّال.([36]) وتميّزت التقارير الأولى الصادرة عن السلطة الفرنسية بالحذر وعدم المبالغة في إبراز خطورة حركة القصرين وتحديد طبيعتها، وهو ما أكّده المعتمد لدى الإقامة العامة الذي رأى أنّه من المجازفة تهويل الحركة وتحويلها إلى ثورة رغم خطورة المنعرج الذي اتخذته في اليوم الثاني من خلال السير نحو تالة.([37]) ولم يستعمل مصطلح الثورة بعد ذلك، الشيء الذي جعل جريدة الحاضرة تنفي بصفة قطعية حصول هذه "الثورة الموهومة"، وتعتبر أنّ حركة القصرين "ليس لها أدنى صبغة ثورة أو عصيان أو مناواة لعموم النزلاء".([38]) وعموما كانت الجرائد التونسية تستعمل مصطلحات محايدة لتوصيف الحركة على غرار "حادثة الفراشيش" و"قضيّة تالة والقصرين" بالنسبة إلى جريدة "الحاضرة"، و"حادثة القصرين" و"نازلة القصرين" بالنسبة إلى جريدة "الصواب". واستعملت جريدة أخبار الجزائر مصطلح "هول مرقريت" و"أمور مرقريت"، في حين استعملت جريدة "المبشّر" الرسمية مصطلحي الثورة والفتنة.([39])

ويبدو جليّا أنّ حركتي مارغريت والقصرين لا تتوفّر فيهما أدنى مقوّمات الثورة، فالقيادة كانت مشتّتة وشبه جماعيّة إذ نميّز عادة بين القائد– أو بالأحرى المحرّك–

([36]) *La Dépêche Algérienne*, 11 janvier 1902.

([37]) رسالة من المعتمد لدى الإقامة العامة الفرنسية بتونس إلى وزير الخارجية بتاريخ 27 أفريل 1906، ورد في:

المنصر، عدنان و عميرة الصغيّر، عليّة، **المقاومة المسلحة في تونس: الجزء الأوّل 1881– 1939**، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1997، ص. 145.

([38]) **الحاضرة**، 3 جويلية 1906.

([39]) انظر جريدة **الحاضرة** بتاريخ 22 ماي و11 ديسمبر 1906، **والصواب** بتاريخ 4 ماي و14 ديسمبر 1906، وكذلك القسم العربي من جريدة **أخبار الجزائر** بتاريخ 8 فيفري 1903، و**المبشّر** بتاريخ 3 جانفي 1902.

الروحي (يعقوب وعمر بن عثمان) والقائد السياسي (الثعالبي وعلي بن محمد بن صالح) والقائد الميداني (محمد بن الصادق بوركيزة وأحمد بن مسعود الحنديري) ([40])، والأهداف النهائية لم تكن جليّة حتّى بالنسبة للمشاركين ولم تكن تؤسّس لمشروع مجتمعي جديد، إضافة إلى غياب التنظيم الواضح وغلبة الفوضى والارتجال.([41])

استعملت أيضا بعض المصطلحات التي تميل إلى التهويل والمبالغة في تحديد طبيعة الحركتين، ونذكر منها بالخصوص تصنيفهما ضمن الانتفاضات الطرقية، في حين أنّ الزوايا الكبرى لم تتبنّ هاتين الحركتين ولم تشجعهما. ويستند أصحاب هذا الرأي إلى انتماء يعقوب وعمر بن عثمان إلى الطريقة الرحمانية، وانتماء الثعالبي إلى الطريقة الطيبية،([42]) وكذلك التقاء "الاخوان" في زاويتي سيدي بوزار وسيدي محمد بن يحي قبيل انتفاضة مارغريت واتّصالهم بأحد الأولياء المشارقة، في حين احتضن ثوّار القصرين الوليّ الكعباشي القادم من قفصة.([43])

مصطلح آخر شاع استعماله في الصحافة الفرنسية هو "الصدام" Echauffourée لكنّه لا يعبّر بدقّة عن طبيعة الحركة وحجمها ويميل إلى التقليل من شأنها، مثله في ذلك مثل القراءات التي اختزلت الحركتين في عمليات صعلكة ونهب منظم، أو في

([40]) ورد في شهادة "مونتاي" المتصرّف الإداري المساعد لبلدية حمام ريغة أمام المحكمة: "كان يعقوب القائد الروحي، أمّا القائد الحقيقي للمجموعة فكان محمد بن الصادق بوركيزة". وذكر المعمّر جينوديه "أعتبر أنّ يعقوب هو القائد، وأنّ الثعالبي شخصيّة مهمّة، أمّا محمد بوركيزة فاعتبره القائد العسكري، وهو الأكثر ضراوة". انظر الدبيش ألجيريان بتاريخ 8 و11 جانفي 1903.

([41]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص. 164.

([42]) Garrot, Henri, « L'islamisme et son action en Berbérie », *Bulletin de la Société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord*, deuxième trimestre 1906, p. 187.

([43]) صرّح عمر بن عثمان أمام المحكمة أنّ الوليّ الكعباشي كان يحرّض الفراشيش على الجهاد، وبيّن قايد الفراشيش أنّ الكعباشي التحق بالوليّ عمر بن عثمان قبل ثمانية أيّام من انطلاق حوادث القصرين، واعترف بأنّه قام بدور مهمّ في الانتفاضة، وأنّ الوليّ كان مجرّد آلة بين يديه وبين يدي المقدّم علي بن محمد بن صالح. وقام على هذا الأساس بإيقافه لكنّ باحث البداية أطلق سراحه، ولعلّ ذلك يرجع إلى متانة علاقته مع الإدارة الاستعمارية، إذ ذكر المحامي خوجة أنّ المراقب المدني بتالة لم يكن يفعل شيئا من دون استشارة صديقه الكعباشي. انظر:

- *La Dépêche Tunisienne*, 13 décembre1906.

مجرّد هبّة أو "نفرة". والغالب في استعمالات الصحف بباريس والجزائر، وبدرجة أقل بتونس، هو استعمال مصطلحات تحيل إلى معجم الانتفاضة والحركات الانتفاضية ([44]) وحتّى إن حاول البعض الالتفاف على هذا المصطلح، فإنّ ذلك يمكن تفسيره بسهولة بمحاولة التملّص من المسؤوليات التي قد ترتبط بتبنّيه سواء تعلّق الأمر بمشارك يرغب في إبعاد التهمة عنه أو بموظف إداري يسعى إلى تبرير تقصيره في كشف الحركة قبل حصولها. ونكتفي هنا بمثالين: يتعلّق الأوّل بالثعالبي الذي صرّح أمام المحكمة قائلا: " لم تكن هناك انتفاضة ولكنّها مصيبة حلّت بنا (بسبب يعقوب)، لم تكن هناك انتفاضة مبرمجة سلفا، فكيف يمكن لنا أن ننتفض وليس لنا من السلاح سوى بعض العصيّ...لقد تبعنا الحركة دون أن نعرف...لم يكن في نيّتنا أبدا أن نحارب".([45]) ويخصّ المثال الثاني قايد الفراشيش الذي أقرّ أمام محكمة سوسة أنّه لا يمكن أبدا الحديث عن وجود انتفاضة بل مجرّد اضطرابات ناتجة عن التحريض والتخمّر ([46]).

جدول عدد1 : التوزيع المهني للمتّهمين المحالين في قضيّة مارغريت.([47])

المهنة	عدد المتّهمين
عامل يومي فلاحي	65
فلاح	21
راعي	8
خمّاس	3
صانع فحم	3
عامل بمقهى	3
عامل بمطعم	2
حارس شخصي لمعمّر	1
المجموع	106

([44]) نذكر من بين المصطلحات المستعملة في هذا المجال:
Insurrection- Révolte- Soulèvement – Rébellion- Emeute- Jacquerie.
([45]) *La Dépêche Algérienne*, 25 décembre 1902.
([46]) *La Dépêche Tunisienne*, 7 décembre1906.
([47]) اعتمدنا في صياغة هذا الجدول على أعداد مختلفة من جريدتي "الدبيش ألجيريان" و"البتي ماريديونال" اللتان نقلتا تفاصيل المحاكمة التي استمرت من 15 ديسمبر 1902 إلى 8 فيفري 1903.

جدول عدد2 : التوزيع المهني للمتّهمين المحالين في قضيّة القصرين- تالة.([48])

المهنة	عدد المتّهمين
فلاح	35
راعي	9
عامل يومي	4
بدون عمل	3
صانع قطران	1
عامل منجمي	1
جندي في حالة فرار	1
تلميذ	1
غير محدّد	1
المجموع	56

وإذا اعتمدنا مؤشّر التركيبة المهنية للمنتفضين، فإنّ حركة مارغريت تبرز أهميّة مشاركة العمّال الفلاحيين الذين يعملون في مزارع المعمّرين المخصّصة لغراسة الكروم، إذ يمثّلون 61,3 % من مجموع المشاركين في الانتفاضة ومنهم يعقوب نفسه الذي كان مختصّا في تركيب الأعمدة الخشبيّة الداعمة لأشجار العنب، أمّا حركة القصرين- تالة فتبرز فيها المشاركة الواسعة للفلاحين بنسبة مماثلة تقريبا تصل إلى 62,5 %.

نلاحظ أيضا تنوّعا في التركيبة المهنية للمشاركين في الحركتين يدلّ أنّ الانتفاضة شملت شرائح واسعة من المجتمع المحلي، لكنّ حالة مارغريت تثبت وجود صنفين من المهن: المهن الجديدة (عمّال مأجورين، عمّال بالمقاهي والمطاعم وجلّهم قبايلية، حارس شخصي لمعمّر)، والمهن التقليدية التي تشمل الرعاة والخمّاسة

(48) اعتمدنا في صياغة هذا الجدول على جريدة "الدبيش تونيزيان" بتاريخ 22 نوفمبر 1906، وكذلك: التيمومي، الهادي، **انتفاضة...**، **نفس المرجع**، ص. 168.

والفحّامة وخصوصا الفلاحين المتوسطين الذين قاموا بدور مهم في قيادة الحركة وتأطيرها. وقد نشرت جريدة المبشّر قائمة تضمّ 18 فلاحا وقعت مصادرة ملكياتهم بسبب مشاركتهم في الانتفاضة، وهي في معظمها ملكيات على الشياع مفتّتة ومشتّتة([49]). ونجد على رأس هذه القائمة الحاج بن عيشة الثعالبي الذي يملك 10 هكتارات إضافة إلى أملاك أخرى حدّدها بنفسه أمام المحكمة قائلا: "أحرث بواسطة محراث، وأملك 20 عنزا و20 ثورا و3 خيول و80 خليّة نحل" ([50]). وكان الثعالبي محسوبا من أعيان دوّار عدلية وله علاقات جيّدة بالمعمّرين وخصوصا بجينوديه. وقام الفلاحون المتوسطون بدور رئيسي في انتفاضة القصرين لا سيّما أولئك الذين أُقصوا من المناصب الإدارية وحرموا من المشاركة في كراء هنشير القصرين ([51])، في حين كان عدد ممثّلي المهن المرتبطة بالمعمّرين محدودا، إذ نجد عاملا منجميا واحدا مع غياب تام للخمّاسة الذين انحازوا لمشغّليهم الفرنسيين وشهدوا ضدّ الثوّار في المحكمة.

تعكس هذه التركيبة المهنية تباين التطوّر الاقتصادي في المجال الحاضن للحركتين، إذ كان التغلغل الاستعماري أكثر وضوحا في مارغريت منه في القصرين. وكانت التحوّلات الاجتماعية والثقافية الناجمة عن هذا التطوّر أكثر جلاء، ويبرز ذلك بالخصوص في تخلخل توازن المجتمع التقليدي وحصول تراتبية اجتماعية وطبقية جديدة بمارغريت عبّر عنها الضابط المتقاعد "غرول" على النحو التالي: "الأعيان وأبناء البيوتات القديمة أصبحوا مجرّد فلاحين، والفلاحون تدحرجوا إلى درجة أسفل فأصبحوا خمّاسة، والخمّاسة أجبروا على مغادرة القبيلة وصاروا أجراء يعملون في ضيعات المعمّرين"([52]). ربط هذا العضو السابق في المكتب العربي هذه التحوّلات بالإجراءات الإدارية التي اتخذتها السلطة المدنية ضدّ التنظيم القبلي، ولم يركّز كثيرا

---

(49) *Mobacher*, 21 novembre 1903.

(50) *La Dépêche Algérienne*, 22 décembre 1902.

(51) التيمومي، الهادي، **انتفاضة...نفس المرجع.**

(52) *La Dépêche Algérienne*, 17 octobre 1901, Graulle, le Commandant, « Situation politique de l’Algérie » (6).

على دور سياسة النهب العقاري، كما أنّ العمّال الجدد لا يتكوّنون من خمّاسة سابقين فقط بل إنّ معظمهم كانوا من أصحاب الأملاك.

ظهرت بروليتاريا أهلية تحدّث عنها فيكتور باروكان (Barrucand) مدير جريدة "أخبار" في عدّة مناسبات، وبيّن الكاتب المختص في الشأن الاستعماري الجزائري "روير" Rouire نشأة هذه البروليتاريا من رحم سياسة المصادرات والنهب العقاري. واعتبرت بعض الجرائد الفرنسية أنّ انتفاضة مارغريت هي في نهاية التحليل انتفاضة بروليتاريين متعصبين ومضطهدين ومجوّعين.([53]) ولئن كانت هذه الانتفاضة – كما هو الحال بالنسبة لانتفاضة القصرين– تقليدية من حيث الشكل، فإنّها كانت بمعاداتها للاستعمار تقدمية ووطنية من حيث المضمون.([54]) وكان وعي المشاركين فيها بوضعيتهم وبحقيقة الاستعمار الزراعي والتوطيني كبيرا، وذلك بحكم احتكاكهم اليومي بالمعمّرين ومعرفتهم بدواليب الإدارة الاستعمارية، كما أنّ طموحاتهم الثورية كانت متقدّمة أحيانا إذ أسرّ الثعالبي إلى أحد الأسرى الأوربيين بأنّ هدفهم الاستحواذ على أراضي المعمّرين وتوزيعها على الفقراء.([55])

وكانت انتفاضة القصرين انتفاضة فلّاحية تمثّل امتدادا للانتفاضات الفلّاحية التي عرفتها البلاد التونسية خلال القرن 19، لكنّها تنتمي إلى صنف نادر منها يتمثّل في الانتفاضات الفلاّحية ذات الطابع الديني، وآخرها كان "حركة المهدي المنتظر" ببلاد خمير سنة 1860. وقد تلاشت هذه الانتفاضات العتيقة التي تمتدّ جذورها للعصر الوسيط من البلاد التونسية نتيجة تغلغل الإسلام المالكي، لكنّها عادت مع الاستعمار الفرنسي الذي أعاد تنشيط المشاعر الدينية([56]). وكان تواترها بالجزائر كبيرا منذ سنة

([53]) *Le Journal du dimanche*, 21 décembre 1902, Pellerin, Louis, « Les insurgés de Margueritte ».
- *La Dépêche de Toulouse*, 9 février 1903, Braud, Louis, « L'affaire de Margueritte ».

([54]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة...نفس المرجع.**

([55]) *La Dépêche Algérienne*, 11 janvier 1903.

([56]) Chérif, M. H., « Les mouvements paysans…*op. cit.*

1830، ومنها استمدت حركة مارغريت، ثمّ حركة القصرين، خصائصها الشكلية والتنظيمية.

ثانيا: ما وراء التعصّب الديني.

2-1- وقائع العنف والنهب وحدودها.

جدول عدد3 : أطوار انتفاضة مارغريت.([57])

نوعيّة العملية	مكانها	حصيلتها
1- محاصرة دار الغابات واقتحامها بعد ان تحصّن بها قايد دوّار عدلية	تيزي أوشير	- سقوط أوّل قتيل فرنسي وهو الحارس الريفي المتجوّل Labessède - أسر القايد وانضمام أحد الخمّاسة المرافقين له إلى الثوّار - نهب الدار من دون التعرّض بسوء إلى النساء
2- قطع الطريق أمام طبّاخ فرنسي وخادمه الجزائري عندما كانا في طريقهما من مليانة إلى عين البنيان لتنظيم حفل زفاف	قرب تيزي أوشير في اتّجاه مارغريت	- إجبار الفرنسي Matte على النطق بالشهادتين وإخلاء سبيله - تهديد مساعده المسلم بالعقاب إذا لم يقم بواجباته الدينية ولم يتخلّ عن خدمة الفرنسيين - مصادرة الخيول ونهب البضاعة
3- اقتحام منزل لفرنسيين غائبين	نفس المكان	نهب محتويات المنزل (مسدّس وأموال وملابس)
4- ايقاف أربع عربات محمّلة بمواد البناء قادمة من مارغريت	الطريق بين تيزي أوشير ومارغريت	- إجبار سائق العربة الفرنسي Polet على النطق بالشهادتين وأسره - مصادرة الخيول - انضمام أحد السوّاق للثوّار
5- التصدّي لأوّل فرقة رسميّة حلّت لردع المنتفضين بقيادة مونتاي Monteils المتصرّف المساعد لحمّام ريغة ومشاركة عسكريين من الأهالي	الطريق بين تيزي أوشير ومارغريت	- إجبار الحاكم المساعد على اعتناق الإسلام وارتداء ملابس عربية وأسره - إجبار عسكري جزائري على النطق بالشهادتين رغم أنّه مسلم - مصادرة الخيول والأسلحة
6- مهاجمة معمّر فرنسي وعامل	على بعد 1	- ذبح المعمّر بيار غاريو Gariot الذي لم يأخذ

(57) *La Dépêche Algérienne*, 16 et 17 décembre 1902.
- *La Démocratie Algérienne*, 15 et 16 et 17 décembre 1902.

اسباني	كم من دار الغابات	تهديد الثوّار مأخذ الجدّ – إجبار العامل الاسباني على النطق بالشهادتين وأسره
7- مهاجمة منزل وضيعة كبير المعمّرين مارك جينوديه Jenoudet ونهبها	على بعد 1,5 كم من تيزي أوشير	– إجبار المعمّر جينوديه على النطق بالشهادتين وارتداء ملابس عربية والانضمام إلى موكب الأسرى – الاعتداء بالعنف الشديد على كلّ الموجودين بالمنزل باستثناء النساء والأطفال – ذبح الشيخ Guillaume Gay والد مدير الضيعة ومحاولة قتل الطبّاخ Rollin – نهب الضيعة
8- ملاحقة العمّال الاسبان والقبض على ساعي البريد	قرب مارغريت	– أسلمة المزارعين الاسبان وضمّهم إلى موكب الأسرى – سلب موزّع البريد وإجباره على النطق بالشهادتين
9- مهاجمة قرية مارغريت والسيطرة عليها ونهبها	مارغريت	– طرد المسلمين من المقاهي وتهديدهم – الاعتداء على الأوربيين وإجبارهم على النطق بالشهادتين – مقتل عامل ايطالي Gildo – سقوط القتيل الخامس وهو عامل اسباني José Ramos – نهب منظم للمنازل والمغازات بشوارع القرية الثلاثة – محاولة اقتحام المدرسة من دون التعرّض إلى المعلمة والتلاميذ والنساء اللاجئات إليها – فشل بعض الأوربيين المتجمعين في منزلين في تنظيم المقاومة والتزام يعقوب بعدم التعرّض للنساء ولكلّ من يقبل النطق بالشهادتين – سيطرة الثوّار على الفرقة الثانية القادمة من مليانة لقمع الانتفاضة والمتكوّنة من المتصرّف الإداري Bougier و3 أعوان من الحرس وفارس من الأمن العسكري باستثناء الملازم Dupuch

		الذي رفض تسليم سلاحه وتمكّن من الفرار رغم إصابته
10– المسيرة باتّجاه مدينة مليانة وقمع الانتفاضة	– الطريق بين مارغريت ومليانة – على بعد 1,5 كم من مارغريت	– نهب ضيعة ثانية للمعمّر جينوديه يسكنها الأخوان Dudex – وصول كتيبة من التيرايور بقيادة الملازم Zoppf بمساعدة الملازم Dupuch والقبطان Girardin واشتباكها مع الثوّار الذين بادروا بإطلاق النار – وفاة عسكري من التيرايور وهو جزائري حامل للجنسية الفرنسية وإصابة الملازمين وبعض الأعوان والمعمّرين – سقوط عدّة قتلى في صفوف المنتفضين الذين تراجعوا وتلاشي الحركة – انطلاق ملاحقة المشاركين في الحركة الذين تحصّنوا بالأحراش والجبال وبداية التحقيق

جدول عدد4 : أطوار انتفاضة القصرين– تالة.(58)

نوعيّة العملية	مكانها	حصيلتها
1– مهاجمة ضيعة كبير المعمّرين لوسيان صال خلال غيابه	برج الشعانبي (بولعابة)	– مقتل هنري صال شقيق لوسيان صال رميا بالرصاص وطعنا بآلات حادّة – ذبح والدة لوسيان صال المسنّة – الاعتداء بالعنف الشديد على الخادم الاسباني دومينيكو ميرا وإجباره على النطق بالشهادتين – إجبار تورنيي Tournier شريك المعمّر برتران الذي كان موجودا ببرج الشعانبي على النطق بالشهادتين وأسره – نهب الضيعة

(58) *La Dépêche Tunisienne*, 22 novembre 1906.
- *La Quinzaine Coloniale*, 10 mai 1906.
– الزيدي، علي، "انتفاضة الفراشيش سنة 1906"، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 49– 50، 1988.
– التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين– تالة...نفس المرجع.**

2- مهاجمة مركز تجويد الخيول	القصرين	- إجبار العسكري مارتان على النطق بالشهادة وارتداء ملابس عربية وأسره - نجاح العسكريان الآخران في الفرار - نهب البرج والاستيلاء على أربعة جياد أصيلة
3- مهاجمة ضيعة المعمّر الفرنسي برتران	القصرين	- إجبار المعمّر برتران وعمّه على اعتناق الإسلام وارتداء ملابس عربية وأسرهما - إجبار شقيقة برتران على التشهّد وترك سبيلها - إجبار أخ خليفة فريانة وأخ شيخ القصرين على النطق بالشهادتين - مقتل بنّاء ايطالي بطريقة شنيعة - نهب الضيعة ومحتوياتها (المنزل والدكان والطاحونة والفرن)
4- محاصرة منجم الشعانبي	سفح جبل الشعانبي	- إجبار العمّال على النطق بالشهادتين - حمل الأسرى الخمسة والعودة إلى مقرّ إقامة الوليّ عمر بن عثمان بفوسانة
5- المسيرة نحو تالة	من فوسانة إلى تالة	- إطلاق النار من قبل الأوربيين المتحصّنين بدار المراقبة المدنية وسقوط عدّة قتلى وجرحي في صفوف المهاجمين وتفرّق الباقي - استدراج الوليّ من قبل الخليفة عبد السلام قعيّد إلى تالة وإيقافه - وصول فرقة من الكتيبة الثالثة لإفريقيا وسرية من الفوج الرابع لقنّاصة إفريقيا ومجموعة من أعوان الشرطة وبداية أعمال الملاحقة والتحقيق

كانت ظروف التحضير للحركتين متشابهة، إذ اتّخذ التحريض الديني منعرجا خطيرا في بداية الثلث الأخير من شهر أفريل (1901 و1906)، وساهم ذلك في خلق جوّ مشحون تطغى عليه الحماسة الدينية المبشّرة بقرب حلول ساعة الخلاص من الحضور المسيحي المتجسّد في المعمّرين والإدارة الاستعمارية. وفي هذا الإطار شارك أفراد من قبيلة ريغة في وعدة سيدي بوزار يوم 22 أفريل وفي وعدة سيدي محمد بن يحي يوم 24 أفريل، وبرز خلال هاذين الاحتفالين مجموعة "الاخوان" الذين

نظموا في المساء حلقات رقص وذكر بقيادة يعقوب، ووصلوا إلى درجة قصوى من التخمّر والجذب الديني، واتّفقوا في زاوية سيدي محمد بن يحي على الخروج في زيارة إلى زاوية بزناس Besnès مساء يوم 26 أفريل 1901.(59) وشارك ثوّار الفراشيش بدورهم في اجتماعين دينيين: عقد أوّلهما يوم 25 أفريل، وتمّ فيه الإعداد لهجوم القصرين بحضور حوالي 150 شخصا، وهو عدد كبير نسبيّا مقارنة بالاجتماعات السابقة التي أشرف عليها الوليّ عمر بن عثمان.(60) وانتظم الاجتماع الثاني في قرقور مساء 26 أفريل 1906 للتشاور حول طريقة الهجوم على تالة، وتميّز بتضاعف عدد الحاضرين وببروز الشقّ المتشدّد بقيادة أحمد بن مسعود الحنديري.(61)

لماذا قرّر قادة الانتفاضة الخروج نحو زاوية بزناس بالذات، والحال أنّها بعيدة جدّا عن مضاربهم، إذ تتبع البلدية المختلطة زمّورة Zemmora في أقصى الجانب الشرقي لمقاطعة وهران (ولاية غليزان حاليا)؟ اكتفى يعقوب أمام المحكمة بالقول: "قرّرنا الذهاب إلى زاوية بزناس لندعو الله أن يرفع عنّا هذه المظالم، وأن يرزق الفلاح البسيط منّا بصابة جيّدة"، وصرّح بوركيزة المتّهم الثالث بأنّ الدافع الأساسي للحركة ظلّ سرّا بين يعقوب والثعالبي.(62) يمكن أن تطرح فرضيّات عدّة: إمّا أن يكون هذا الاختيار نابعا من الثعالبي باعتباره ينتمي إلى الطريقة الطيبية التي تتبعها هذه الزاوية، أو إنّ الزوّار كانوا يرغبون، مثلما اتّهمهم قايد دوّار عدلية، في الالتحاق بالثائر بوعمامة الموجود آنذاك بين أقصى الغرب الجزائري والأراضي المغربية، وهو ما ذهب إليه الضابط غرول حين ذكر أنّ وفد ريغة كان يرغب في إهداء حصانين إلى القائد الشهير بوعمامة، وأنّ الهديّة تسمّى في مثل هذه الحالات "خيول المسيرة"،

---

(59) *La Dépêche Algérienne*, 17 décembre 1902, « L'affaire de Margueritte : Acte d'accusation ».

(60) Ministère des Affaires Etrangères, *Rapport au président de la République…op. cit.*

(61) شهادة أحد المشاركين في الأحداث قبيل وفاته متأثرا بالجروح التي أصابته خلال المسيرة إلى تالة، وقد وردت في: المنصر، عدنان و عميرة الصغيّر، عليّة، **المقاومة المسلحة...نفس المرجع**، ص. 138.

(62) *La Dépêche Algérienne*, 17 et 22 décembre 1902.

وتعبّر رمزيّا على الاعتراف بسلطته والاستعداد للدخول في طاعته وإعلان التمرّد على السلطة الفرنسية.([63]) وأخيرا، لعلّ هذا الخروج يمثّل استعادة لاواعية لهجرة ريغة القسرية نحو الغرب الوهراني في بداية القرن التاسع عشر التي أشرنا إليها سابقا.

نجح يعقوب في وعدة سيدي محمد بن يحي في الحصول على هديّة ثمينة من أحد الأعيان (ملياني سلطاني) تتمثّل في جواد أصيل، لكنّه سرعان ما تراجع عن هبته وأراد استرجاع حصانه، ولمّا فشل اشتكى للقايد الذي أعلم متصرّف حمّام ريغة بأنّ بعض الأشخاص ينوون الالتحاق ببوعمامة. وتحوّل صباحا إلى مقرّ إقامة الثعالبي الذي تقرّر أن يكون منطلق الخروج، لكنّهم هدّدوه وطاردوه فتحصّن بدار الغابات حيث قتل الحرس الريفي، وكان ذلك منطلق الحركة التي خرجت على ما يبدو قبل أوانها وتغيّر برنامجها، فلم يكن في الحسبان مهاجمة دار الغابات لولا تحصّن القايد بها ورفضه للمواجهة أو الخروج، ولم يكن في نيّة الثوّار أن يقتلوا أيّ شخص حسب تأكيد يعقوب لولا مبادرة الحرس الريفي بإطلاق النار ([64]). كانت حركة ريغة كما يبيّن الجدول أعلاه في شكل مسيرة متواصلة من تيزي أوشير إلى مارغريت، ثمّ منها إلى مليانة، غير أنّها توقفت بعد الخروج من قرية مارغريت بوقت قصير. وكانت حركة الفراشيش في شكل هجوم مفاجئ على ضيعات المعمّرين ببرج الشعانبي والقصرين، ثمّ في شكل "مسيرة مقدّسة" نحو تالة.([65]) واللافت للانتباه أنّ يعقوب ومساعده الأوّل شاركا مباشرة في مختلف أطوار الانتفاضة، بخلاف عمر بن عثمان

([63]) *La Dépêche Algérienne*, 18 octobre 1901, Graulle, le Commandant, « Situation politique de l'Algérie » (7).

([64]) صرّح يعقوب في آخر المحاكمة، بعد أن تخلّى عن نزعة الإنكار السابقة، قائلا: "عندما غادرت أنا والحاج بن عيشة الثعالبي مشتى هذا الأخير وقصدنا دار الغابات لم يكن في نيّتنا أن نقتل أيّ شخص، وللأسف فإنّ عون الغابات هو الذي بادر بإطلاق النار، وفي هذه اللحظة لم يكن لديّ ايّة سلطة لمنع هؤلاء الرجال المتحمّسين من إطلاق النار والقيام بالأعمال التي تلت ذلك والتي أرفضها". انظر: "الدبيش ألجيريان" بتاريخ 7 فيفري 1903، و"أخبار الجزائر" بتاريخ 8 فيفري، و"لوبتي ماريديونال" بتاريخ 5 فيفري.

([65]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة...نفس المرجع.**

والمقدّم اللذين مكثا في مقرّ إقامة الوليّ بفوسانة، وهو أمر لا يخلو من دلالات سنبيّنها لاحقا.

تشترك الحركتين مع ذلك في جملة من الممارسات كالعنف الدموي والنهب والأسلمة المفروضة ومعاملة الأسرى، ممّا يوحي باستنساخ ثوّار القصرين لحركة مارغريت. ونبدأ بمسألة إجبار الأوربيين على النطق بالشهادتين لأنّها مسألة مستحدثة لم يقع اعتمادها في الحركات الانتفاضية السابقة بالجزائر وتونس، وذلك على الرغم من ادّعاءات جريدة "تونس الفرنسية" التي ذكرت أنّ بوعمامة أمر بقتل الأوربيين الذين يرفضون النطق بالشهادة، وهذا ما لم يرد ذكره أبدا من العسكريين الفرنسيين الذين أرّخوا لهذه الحركة.([66])

في مارغريت، كما في القصرين، قدّم المنتفضون خيارا صريحا للأوربيين: إمّا اعتناق الإسلام أو الموت. وكانوا لا يتكفّلون عناء الشرح والإقناع بل كانوا يفاجؤون المعني بالأمر بقولهم في لهجة تهديد "شهّد شهّد"، وكلّ من استوعب الأمر، أو تمّ تلقينه من قبل وسيط موجود على عين المكان (القايد أو جينوديه في مارغريت والخمّاسة في القصرين)، يتمّ طرح قبعته أرضا، ثمّ يوفّرون له ملابس عربية، ويمنحونه أحيانا اسما عربيا، ويقومون في الغالب بأسره، ويفرضون عليه المشاركة في صلاة جماعية كتلك التي تمت في ساحة مارغريت بمشاركة كاهن القرية نفسه، أو تلك التي تمت في فوسانة.([67]) والملاحظ أنّ هذه الأسلمة الشكلية لم تكن تفرض على المسيحيين فقط خصوصا في مارغريت بل كانت تشمل كلّ من يعترض سبيل المنتفضين عربا كانوا أم أوربيين. وتبدو عمليّة حمل الأسرى مفهومة في حالة مارغريت لأنّ الانتفاضة كانت في شكل مسيرة متواصلة، فكان الوافدون الجدد يسيرون مع الثوّار وتحت حراستهم بوصفهم مرافقين لا رهائن، وهو ما يمكن أن يثير الرعب في صفوف باقي الأوربيين فيستسلمون بدورهم، ويثير في نفس الوقت حماسة

([66]) *La Tunisie Française*, 5 mai 1906, « Kasserine-Thala ».

([67]) نجد هذه المعطيات مفصّلة في لائحتي الاتّهام والإحالة، وكذلك في شهادات الحاضرين بمحكمتي مونبوليي وسوسة.

الأهالي فيحفّزهم للانضمام إلى الحركة. وفرض منتفضو القصرين على الأسرى أن يسيروا معهم إلى مقرّ إقامة الوليّ ليجدّدوا أمامه المظاهر الشكليّة لدخول الإسلام، وليقرّر في نهاية الأمر مصيرهم. وكان من الطبيعي أن يكون عدد أسرى مارغريت أكبر بكثير من عدد أسرى القصرين (50 أسيرا مقابل خمسة فقط)، لذلك فإنّهم شكّلوا عبئا كبيرا على المسيرة حتّى إنّ بعض الجرائد المحلية زعمت أنّ قادة الحركة خطّطوا للتخلص من جميع الأسرى في مكان محدّد بين مارغريت ومليانة،([68]) ولكنّ شهادة بعض الأسرى تفيد أنّهم تلقوا معاملة جيّدة، كما سمح لبعضهم بامتطاء الخيول وبحريّة التنقل، وهو هامش استغلوه لطلب النجدة من السلطة العسكرية بمليانة.([69])

كان الجنوح إلى العنف الشديد والقتل أكثر وضوحا في بداية الحركتين لأنّ حالة الجذب والتعصّب الديني كانت على أشدّها ثمّ عادت الجموع الهائجة إلى حالتها الطبيعية تدريجيّا، فعند الوصول إلى مارغريت أصبح الثوّار أكثر هدوءا و"حتّى ملامح وجوههم تغيّرت" كما لاحظ جينوديه.([70]) وكان الأمر كذلك بالنسبة للفراشيش، إذ بلغ العنف أقصاه في برج الشعانبي حيث تمّ مقتل والدة المعمّر صال في فراشها رغم أنّها عجوز مقعدة، ثمّ قتل المهاجمون ابنها وحاولوا ذبح الخادم الاسباني، لكنّهم ظهروا في القصرين أقلّ ميلا للعنف الأعمى. وفسّر المراقب المدني بتالة محدوديّة عدد القتلى بأنّ التعصّب الديني كان مصطنعا باعتباره مجرّد غطاء للتمويه على الطابع الحقيقي للحركة المتمثّل حسب رأيه في الرغبة في النهب.([71]) وتميّز ثوّار مارغريت بالمقابل بالتزامهم التام باحترام النساء والأطفال، إذ لم يصدر منهم أيّ شكل من أشكال الاعتداء على الأوربيات سواء في تيزي أوشير أو في ضيعة جينوديه أو في مارغريت والشهادات عديدة في هذا المجال، كما أعفوهنّ من النطق بالشهادتين

([68]) ورد هذا المعطى في جريدة "يقظة زكار" « Le Réveil du Zaccar » ونقلته "لادبيش ألجيريان" بتاريخ 24 ديسمبر 1902.

([69]) *La Croix de l'Algérie et de la Tunisie,* 2 mai 1901, Gauthier, Ch., « Révolte d'indigènes à Margueritte ».

([70]) *La Dépêche Algérienne*, 11 janvier 1903.

([71]) انظر شهادة المراقب المدني أمام محكمة سوسة في "الدبيش تونيزيان" بتاريخ 6 ديسمبر 1906.

بخلاف ما قام به ثوّار القصرين مع شقيقة المعمّر برتران، ولم يتم أسر أيّة امرأة في الحالتين.

لم يستهدف ثوّار مارغريت كبار المعمّرين بالقتل، كما أنّهم لم يستهدفوا الفرنسيين فقط بل الأوربيين عموما من اسبانيين وايطاليين. وجرى الأمر على نفس المنوال تقريبا في القصرين، إذ هاجم المنتفضون ضيعة لوسيان صال المعروف بغطرسته رغم علمهم على الأرجح بغيابه إذ كان موجودا بتالة يوم الواقعة وقبلها كان في سوسة، لكنّهم جسّدوا مشاعر الحقد والانتقام بقتل أمّه وشقيقه، واكتفوا بأسر المعمّر الثاني برتران الذي كانت له أيضا بعض المشاكل مع الأهالي حول هنشير القصرين.([72]) استغلت الصحف اليمينية بتونس والجزائر هذا المعطى لتبيّن أنّ الحركة لم تكن موجّهة ضدّ المعمّرين وتجاوزاتهم بل كانت مجرّد انفجار للتعصّب الديني، ولكنّ أحد كبار الضبّاط بالجزائر ذهب في تفسيره مذهبا آخر يتّصل بالذهنيّة العربية، إذ رأى أنّ العربي عندما يريد الانتقام لا ينتقم بالضرورة من الشخص المتسبّب مباشرة في غضبه، بل يمكنه أن ينتقم من أيّ شخص آخر يعترضه شريطة أن يكون من نفس ملّته، وبالتّالي يصبح قتل أيّ "رومي" بمثابة الانتقام من الإدارة الاستعمارية والمعمّرين الروامة عموما.([73])

حصلت في مجرى الحركتين عمليّات نهب طالت ضيعات المعمّرين ومحلاتهم السكنية والتجارية، وكان المنتفضون يبحثون بالأساس عن الأسلحة والخيول اللازمة لتدعيم حركتهم. وتفيد الشهادات المتواترة أمام المحكمة أنّ ثوّار مارغريت لم يتورّطوا غالبا في سرقة الأموال والمصوغ والأشياء الثمينة،([74]) أمّا في القصرين فقامت شقيقة

([72]) *La Dépêche Tunisienne*, 8 décembre 1906.

([73]) *La Dépêche Algérienne*, 11octobre 1901, Graulle, le Commandant, « Situation politique de l'Algérie » (1).

([74]) أعطى مونتاي حافظة أوراقه للثعالبي لكنّه رفض أخذها قائلا: "لا حاجة لنا بالنقود"، وشهد جينوديه أنّ الثائرين لم يسلبوا منه شيئا لا أمواله ولا ساعته اليدوية. وذكرت زوجته أنّها فقدت حقيبة مصوغها مؤكدة أنّ الأهالي لم يقوموا بسرقتها لأنّها كانت أمامهم ولم يلتفتوا إليها، وأقرّت زوجة المعمّر "بوتي" Petit أنّها عرضت عليهم المصوغ والأمول لكنّهم رفضوا أخذها. ولا ينفي ذلك حصول بعض التجاوزات التي اعتبرها المعمّر غوتيي مجرّد تبذير لا نهب حقيقي.

برتران باستئناف عملها في مغازتها بمجرّد ذهاب المهاجمين، ولم تحصل عمليات نهب في تالة ومحيطها. ويؤكد ذلك أنّ الحركة لا يمكن اختزالها في مجرّد غزوة جهاد من أجل النهب.

معطى آخر تميّزت به حركة مارغريت عن حركة القصرين، ويتمثّل في كون المنتفضين واجهوا خلال حركتهم ممثّلين عن السلطة الإدارية والأمنية (مونتاي الحاكم المساعد لحمّام ريغة وبوجيي الحاكم المساعد لمليانة) وتمكّنوا من السيطرة عليهم بسهولة. ولعلّ ذلك يعطي قيمة أقل للاستنتاج الذي توصّل إليه البارون دانتوار بخصوص ثوّار القصرين عندما صرّح بأنّه لو صادف وجود أحد ممثّلي السلطة وبعض العساكر المسلحين على عين المكان لتمّ القضاء على الحركة بسهولة.([75]) ولم تتوقف حركة مارغريت إلّا عند وصول امدادات عسكرية أكبر من مليانة، وكان من بين المشاركين فيها الضابط "جيراردين" Girardin، الذي كان أيضا ضمن الفرقة العسكرية التي حلّت بتالة بعد تلاشي الحركة.([76]) وهذا يحيلنا إلى نقطة أخيرة، ففي تالة نجح الأوربيون المتحصنين بدار المراقبة المدنية في صدّ المهاجمين بعد استعدادهم الكافي لذلك، في حين فشلت بعض محاولات المقاومة الذاتية التي تمّت في بعض المنازل بمارغريت.

2- 2- وحدة الأسباب الدافعة لاندلاع الانتفاضتين.

التحاليل التي حاولت المقارنة بين أسباب حركتي مارغريت والقصرين محدودة ومتضاربة. وتقول مجلة "الكينزان كولونيال" في هذا السّياق: هناك اقتناع شبه عام أنّ أهالي مارغريت ثاروا بسبب التعصّب الديني وأيضا بسبب النهب العقاري الذي جرّهم إلى الفقر المدقع، لذلك استنتج البعض أنّ التفقير الناجم عن مصادرة الأراضي يمثّل سببا رئيسيّا لانتفاضة القصرين، غير أنّنا لا نساند هذا الطرح باعتبار أنّ هذه المنطقة لا تضمّ سوى ضيعتين استعماريتين.([77]) تواصل هذه المجلة تحليلها قائلة: يشاع أنّ الفراشيش تضرّروا من رداءة المحصول لثلاث سنوات متتالية ممّا جعلهم يقتاتون من

([75]) تقرير البارون دانتوار ...**نفس المصدر**.

([76]) *Le Petit Marseillais*, 30 avril 1906.

([77]) *La Quinzaine Coloniale*, 10 mai 1906, « L'échauffourée de Thala ».

النباتات والجذور البرّية، وهو عامل يكفي لتفسير هذه الحوادث، لكنّنا لا نقبل هذه الطريقة في البرهنة لأنّ المراقبة المدنية بتالة تعتبر أقلّ المناطق التونسية عرضة للجفاف، فالأودية تجري فيها بطريقة كافية للحصول على بعض المحصول، وهي منطقة تربية ماشية وأشجار مثمرة وليست منطقة حبوبية، وفيها نجد أفضل قطيع بفضل اعتماد الخرفان الجزائرية ذات المردود الأعلى. وكلّ هذا يجعلنا نقول: إذا قدّر لانتفاضة أن تقوم في البلاد التونسية بسبب الفقر فإنّها لا يفترض أن تقوم في هذه المنطقة في المقام الأوّل. واستندت في ذلك إلى ما ورد في تقرير البارون دانتوار حين ذكر أنّ الانتفاضة لم تكن على الأرجح بسبب الظروف الحالية لحياة الأهالي ولا بسبب طبيعة علاقتهم بالمعمّرين، وخلصت إلى أنّ حركة القصرين وتالة قامت أساسا بسبب التعصّب الديني وهي بالتّالي النقطة الوحيدة التي تجمعها بدوافع حركة مارغريت، بل واعتبرت أنّ هذا التعصّب لم يكن في الحقيقة سوى مجرّد غطاء للقيام بغزوات مثمرة من أجل النهب، وربّما للانتقام أيضا من بعض المعمّرين ومن الإدارة الفرنسية.([78])

القراءة الثانية التي تناولت هذه المسألة وردت بجريدة "لوطون" الأقلّ ارتباط بالإدارة الاستعمارية، وتتقاطع جزئيّا مع القراءة السابقة، إذ جاء فيها ما يلي: تختلف انتفاضة تالة عن انتفاضة مارغريت في نقطة جوهريّة مهمّة، ففي مارغريت تمّ استهداف الأهالي من الاستعمار الزراعي الذي جرّدهم من نسبة كبيرة من أراضيهم وتركهم في حالة من العوز الشديد الذي يمكن تحميل مسؤوليته إلى الفرنسيين، بينما لا نجد مثل هذا الأمر في تالة هذه المنطقة الطرفية التي لم تنفتح على الاستعمار الزراعي سوى من فترة قريبة، ولا أدلّ على ذلك من كون المعمّرين لم يحصلوا سوى على 10 آلاف هك من أراضي المراقبة المدنية بتالة التي تعدّ 933 ألف هك، وهو ما لا يمكن أن يؤثّر كثيرا على علاقتهم بالفراشيش. وبيّنت الجريدة أنّ الحركتين تتشابهان مع ذلك في كون الفقر والتعصّب يشكّلان إحدى أسبابها، فالسنة الفارطة كانت سنة مجاعة، إذ تراجع الإنتاج بسبب نقص الأمطار، وتنضاف إلى هذه

---

(78) *Ibid.*

الكوارث نزول كميّات كبيرة من الثلوج في شهر فيفري (1906) وهو ما أدّى إلى نفوق عدد كبير من الماشية، فاضطرّ الأهالي إلى استهلاك بعض النباتات البرية (الخبّيزة والتلاغودة وغيرها) في انتظار الصابة المقبلة التي تبدو جيّدة، ويمكن أن نفهم بذلك كيف أصبح هؤلاء البائسين فريسة سهلة لمحرّض ديني قدّم نفسه على أساس أنّه صاحب خوا رق وقدرات سحريّة.(79)

أكّدت جريدة "الديمقراطية الجزائرية" عدم وجود ترابط وثيق بين الدوافع المتسبّبة في اندلاع الحركتين، وبيّنت أنّ حالة الفقر التي كانت سائدة في تالة لا يمكن نسبتها إلى تلك الأقليّة من المعمّرين المشتّتين بين دواوير الفراشيش المكتظة.(80) وتبنّت "نشرية إفريقيا الاستعمارية" نفس الطرح تقريبا فقالت: في تالة مثل مارغريت هناك التعصّب الذي تمّ بتحريض من الوليّ، أمّا عن الأسباب فلا يمكن إرجاعها إلى المعمّرين وهم قلّة، ولم تثبت التحريّات شيئا ضدّهم. ويبدو في الحقيقة أنّ ضعف المحصول لسنوات متتالية، وما نتج عن ذلك من بؤس، مثّلا الأرضيّة الملائمة لنجاح دعوة الوليّ المشعوذ.(81)

يبدو من خلال هذه القراءات أنّ المشترك الوحيد بين دوافع الحركتين يكمن في التعصّب الديني، وأنّ الدافع الثاني لانتفاضة الفراشيش يقتصر على الفقر الناجم فقط عن تواتر سنوات عجاف، في حين يرتبط بالنسبة لانتفاضة ريغة بسياسة النهب العقاري والمصادرات الجماعية. ويستدعي منّا ذلك إزاحة بعض اللبس من خلال توضيح ثلاثة نقاط تمثّل في نفس الوقت الدوافع المشتركة والمفسّرة لاندلاع الحركتين:

- التعصّب الديني: اتّفقت التقارير الإدارية والسياسية بالجزائر (ماريل حاكم حمّام ريغة وشارل جونار Jonnart الحاكم العام وفالديك روسّو رئيس مجلس الوزراء) أنّ انفجار التعصّب يمثّل السبب الرئيسي لحركة مارغريت، وهو تقريبا نفس ما توصّلت إليه التقارير الرسمية بتونس. واعتبرت جريدة "لوفيغارو" أنّ التعصّب لا

(79) *Le Temps*, 29 avril 1906, « En Tunisie ».
(80) *La Démocratie Algérienne*, 30 août 1906, Girou, H., « Toujours la sécurité ».
(81) « Les événements de Thala », *Bulletin de l'Afrique française*, 1906, p. 130-131.

يمثّل سوى السبب المباشر لحركة مارغريت لأنّه لا يكفي إلّا لوصف الأحداث كما وقعت يوم 26 أفريل، أو بمعنى آخر هو الشكل الذي اتخذته الحركة أكثر منه دافع مفسّر لحصولها. ولا يمكن لأيّ حركة اجتماعية أو انتفاضية أن تحصل لمجرّد الاستجابة لدعوة أو تحريض من رجل ما، وبالتّالي فإنّ السؤال الذي يجب أن يطرح هو الآتي: لماذا حصل هذا الانفجار في أفريل 1901، وفي تلك المنطقة بالذات؟ ولماذا كانت دعوة يعقوب مسموعة؟ ([82]) يمثّل العامل الديني من هذا المنظور مجرّد عامل قادح، لكنّ الشرارة لا تكفي وحدها لتوليد الانفجار، إذ يجب توفّر المواد القابلة للاشتعال، وهذه المواد يمكن أن نجدها بسهولة بالرجوع إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالسياسة الاستعمارية، فإلى جانب "أشياء السماء" نجد "أشياء الأرض" التي تفسّر جانبا أساسيّا من الحركة على تعبير جريدة "لوفيغارو".([83])

– تفكيك المنظومة القبلية وضرب نمط العيش المرتبط بها بواسطة سياسية استعمارية جائرة: لم يكن الفقر ناجما عن الجوائح المناخية والآفات المرتبطة بها، فهي مسألة دورية اعتاد الأهالي التأقلم معها، بقدر ما كان مرتبطا بجوهر السياسة الاستعمارية وتشريعاتها. فقد عمدت الادارة الاستعمارية بالجزائر إلى تحطيم أسس التنظيم القبلي وتغيير مؤسّساته التقليدية بنظام إداري معقّد وصعب بحيث لم يتسنّ للأهالي فهمه والتعامل معه. وساهم ذلك في القضاء على قيم التضامن التي كانت تساعد على محو الفوارق الاجتماعية وحصول مختلف الشرائح الاجتماعية على حاجياتها المادية بكلّ يسر، وكذلك في ضرب التراتبيّة القبلية القديمة وظهور شرائح جديدة تعيش على هامش القبيلة.([84]) وفرضت قانونا جديدا وغريبا للأسماء والألقاب العائلية قابله الأهالي باستياء شديد لأنّه جعلهم يشعرون بالانبتات عن أصولهم العشائرية.([85]) وقامت الإدارة الاستعمارية بتونس بتغيير التقسيم الإداري لقيادة

([82]) *Le Figaro*, 15 décembre 1901, Varennes, Henri, « Les causes de l'insurrection de Margueritte ».

([83]) *Ibid.*

([84]) *La Dépêche Algérienne*, 12 octobre 1901, Graulle, le Commandant, « Situation politique de l'Algérie » (2),.

([85]) انظر مرافعة الأدميرال محامي يعقوب في: "الدبيش ألجيريان" بتاريخ 27 جانفي 1903.

الفراشيش من تقسيم إداري قبلي إلى تقسيم إداري ترابي، وفرضت بعض التغييرات على المؤسّسات العرفية فهمّشت مؤسّسة الميعاد ووضعت شروطا جديدة لانتداب المشائخ والخلفاوات والقيّاد، وفرضت على الفراشيش التجنيد الإجباري رغم حساسيّتهم المفرطة تجاه الخدمة العسكرية، وهو ما عبّروا عنه باحتجاج كبير في تالة قبل الانتفاضة بسنة واحدة.([86]) وعمدت الإدارة الاستعمارية إلى ضرب المقوّمات المادية للحياة الجماعوية لقبيلة ريغة والفراشيش، وكان لإدارة الغابات ذات السلطة الواسعة دور كبير في تضييق الخناق على مراعيهم وأنشطتهم التقليدية (صنع الفحم الخشبي وصناعة القطران واستغلال الحلفاء).([87]) ويظهر ذلك من خلال التشدّد في تحديد المخالفات وتسليط الخطايا المجحفة، ويذكر أنّ عدد محاضر المخالفات الغابية المسلّطة على أهالي ريغة وصل إلى 96 ألف محضر في 7 سنوات، وإذا احتج الأهالي عن ذلك، بتعمّدهم إحراق الغابات مثلا، فإنّ السلطة الاستعمارية تفرض عليهم عقابا جماعيا وتلزمهم بالقيام بأعمال السخرة.([88]) ومن ناحية أخرى، فقد أمعنت الإدارة الاستعمارية في مراقبة تحركات الفراشيش فضيّقت الخناق على حركتهم الموسمية نحو الشمال للهطاية والعشابة، وأحكمت مراقبة الحدود لمنع التهريب،([89]) ولم توفّر فرص شغل بديلة بخلاف أهالي ريغة الذين توفّرت لهم فرص العمل في مزارع الكروم ولو بأجور زهيدة. يشترك الفراشيش وريغة أيضا في التعرّض إلى ضرائب متنوعة ومستحدثة أحيانا (ضريبة الاحتفالات في الجزائر)، وحتّى إن لم تكن هذه الضرائب مجحفة، فإنّ المشكل يكمن في تسلّط القائمين على جبايتها وفي طريقة تقديرها في سنوات المسغبة بالخصوص.([90]) وكان من الطبيعي أن تؤدّي هذه

([86]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص.

([87]) Phéline, Christian, « La révolte de Margueritte : résistance à la colonisation dans une Algérie pacifiée (1901-1903) », in : Abderrahman Bouchène, Jean-Pierre Peyroulou, *Histoire de l'Algérie coloniale (1830-1962)*, La Découverte Paris, 2014.

([88]) انظر مرافعة الأدميرال محامي يعقوب...**نفس المصدر**.

([89]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص.

([90]) *La Dépêche Algérienne*, 16 octobre 1901, Graulle, le Commandant, «Situation politique de l'Algérie » (5).

السياسة الممنهجة إلى تفقير الأهالي وتعميق بؤسهم، وقد عبّر عن كلّ ذلك ميلود الثعالبي أمام الحكمة حين قال: "لم يتبق للأوربيين سوى شيّنا". ويؤدّي الفقر إلى سقوط الأهالي فريسة بأيدي المرابين الجشّع، مع تراكم مشاعر الغضب والحقد في نفوسهم ضدّ المعمّرين والإدارة الاستعمارية، التي عمدت أيضا إلى استهداف المقوّم الأساسي لوجودهم أي الأرض.

– المصادرات الجماعية وسياسة النهب العقاري: بخلاف ما روّجته التقارير السابق ذكرها، يعتبر الاستعمار الزراعي العامل المحّدد في نهاية المطاف لاندلاع حركتي ريغة والفراشيش، وفي هذا السّياق يقول بول فينياي دوكتون: لا يمثّل التعصّب الديني والتحريض الطرقي سوى عناصر ثانوية في هذه الحركة التي يكمن سببها الرئيسي في سياسة النهب العقاري الذي سلّط على دواوير الفراشيش، إذ أزيحوا من أراضيهم وتمّ تجويعهم وتجويع قطعانهم، لذلك كان من المنتظر أن يثوروا يوما ما دون انتظار دعاة الحرب المقدّسة للانتقام من بعض المتسببين في نهبهم وتفقيرهم على غرار ما وقع سابقا مع حركة مارغريت، حيث ثار أهالي ريغة ودافعهم الوحيد في ذلك سياسة النهب الجماعي التي سلطت عليهم.([91]) وبالفعل فقد أزيح الفراشيش من هنشير القصرين منذ تسجيله سنة 1896 وضمّه إلى أملاك الدولة، وتضرّرت من ذلك خمسين عائلة من نزلاء الهنشير (الجدّارية). وفتح باب التصرّف في أرضه عن طريق الشراء والكراء للأعيان المحليين وخصوصا للمعمّرين الذين أصبحوا يتصرّفون في 500 هك من أجود الأراضي. أمّا أراضي الفراشيش فقد أصبحت بمقتضى أمر 14 جانفي 1901 أراضي جماعية، لأفراد القبيلة حقّ استغلالها دون تملّكها الفعلي ممّا يتيح للمعمّرين إمكانية التسرّب إليها بطرق ملتوية.([92]) وقد طرحت مسألة النهب العقاري في مارغريت بأكثر حدّة مقارنة بتالة لعدّة أسباب تتعلّق بحجم الأراضي المصادرة، وأهميّة الجدل الذي تعلّق بها سواء في مجلس النوّاب الفرنسي أو في الصحافة، وخصوصا لتفرّدها بوجود ظاهرة البيع بالمزاد للأراضي المشاعية غير

(91) Vigné d'Octon, Paul, *La sueur du burnous : les crimes coloniaux de la Troisième République*, Editions de la Guerre Sociale, Paris, 1911, p. 108-109.

(92) التيمومي، الهادي، **انتفاضة القصرين...نفس المرجع**، ص.

القابلة للتقسيم Licitations. وتعبّر الأرقام عن هذه الوضعيّة بدقّة شديدة: ففي سنة 1842 كانت ريغة تمتلك 17.666 هك وتعدّ 929 فردا، لكنّها لم تعد تملك سنة 1901 سوى 7.000 هك في حين ازداد عدد أفرادها إلى 3.600 فردا أي أنّها فقدت حوالي 60 % من أراضيها في الوقت الذي تضاعف فيه حجمها الديمغرافي 4 مرّات تقريبا.([93]) وقد اعترف رئيس الوزراء الفرنسي بأنّ جملة المصادرات التي طالت أراضي ريغة منذ سنة 1868 بلغت 12 ألف هك، ثمّ وقعت مصادرات أخرى بين 1877 و1879 شملت ألف و835 هك إضافية.([94]) فعندما بدأ التحضير لإنشاء مستوطنة جديدة بموضع عين التركي سنة 1878 (زكار ثمّ مارغريت منذ سنة 1881) تمّت مصادرة 586 هك من أراضي ريغة، وشهدت مارغريت بعد إحداثها رسميّا سنة 1884 ثلاث عمليات توسعة متتالية في ظرف 15 سنة.([95]) وكانت إحدى العمليّات التي تمّت سنة 1895 على حساب أراضي بوحايا التي انطلقت منها الانتفاضة، وطالب جينوديه سنة 1900 بتوسعة رابعة وهو ما جعل أهالي ريغة يتوجهون بشكوى إلى رئيس الجمهورية.([96]) وقد بدأت المصادرات حتّى قبل "الاستشارة المشيخية" Senatus Consulte لسنة 1863 وبطرق متنوعة عن طريق الجيش وأملاك الدولة وإدارة الغابات. وتمّ توظيف قانون "وارني" Warnier (1873) لنهب أراضي ريغة المشاعية عن طريق البيع بالمزاد لحصص فردية من أراضي جماعية غير قابلة للتقسيم لأنّ قانون 1863 فرض تسجيلها باسم القبيلة، وهو ما يتيح للمضاربين الحصول على كامل العقار بعد التلاعب في نشر المعلقات الإشهارية الموجّهة لتنبيه أصحاب الحقوق. وبهذه الطريقة، تمكّن كبار المعمّرين جينوديه، وهو محامي في الأصل، من الاستحواذ على أكثر من ألف هكتار من

---

(93) Rouire, A. M-F., « Les colons de l'Algérie » (II), *Revue de deux mondes*, année 71, septembre-octobre 1901, p. 442.

(94) *Journal officiel de la République Française*, débats parlementaires, Chambre des députés, 14 juin 1906, p. 1382.

(95) Sessions, Jeniffer, « Débattre de la licitation comme stratégie d'acquisition des terres à la fin du XIXe siècle », in : Didier Guignard (dir.), *Propriété et société en Algérie contemporaine…op. cit.*

(96) Phéline, Christian, « Deux cas locaux de résistance paysanne…*op. cit.*

أراضي قبيلة ريغة رغم شكاويهم إلى اللجنة البرلمانية التي زارت مليانة سنة 1900.[97]

ثالثا: دراويش أم ثوّار؟: محمد يعقوب وعمر بن عثمان.

3-1- السلطان والمذهوب.

لئن كان محمد بن الحاج أحمد يعقوب المحرّض الديني والقائد الروحي لانتفاضة مارغريت ينتمي لنفس القبيلة المنتفضة، فإنّ عمر بن عثمان فضلي، المحرّك الديني لانتفاضة القصرين- تالة، كان جزائريا ولد في رأس الشواشي (سوق اهراس)، ينحدر من فرقة العيايدة من قبيلة أولاد خيار الحدودية وينتمي من ناحية الأمّ إلى قبيلة أولاد سيدي عبيد المرابطية.[98] ولعلّ هذا الأصل الأجنبي مكّنه من توحيد الفراشيش ورفعه فوق مستوى تناقضاتهم الداخلية التقليدية، وهي ظاهرة عرفتها عدّة حركات اجتماعية بالبلاد التونسية خلال القرن 19.[99]

ينحدر يعقوب (30 سنة في 1901) وعمر بن عثمان (حوالي 25 سنة في 1906) من أصول عائلية متواضعة جدّا، فالأوّل تحوّل إلى عامل يومي بعد مصادرة أراضي عائلته، أمّا الثاني فيبدو أنّه كان خمّاسا مثل والده ثمّ راعيا قبل أن ينقطع عن أيّ نشاط مهني مكتفيا بالتنقل بين الدواوير والزوايا طلبا للصدقات بسبب ضعف بنيته ومرضه الدائم، إذ كان يعاني من أعراض السلّ والزهري ويتعرّض باستمرار إلى نوبات الغشيان والتخشّب.[100] وكان -مثل يعقوب – أميّا وذا قدرات فكرية محدودة. ينتمي يعقوب إلى الطريقة الرحمانية بوصفه من "الإخوان"، وهي نفس الطريقة التي ينتمي إليها عمر بن عثمان حسب تأكيد بعض الدارسين،[101] على أنّ ذلك يبدو مستبعدا، فقد نفى بنفسه ذلك في التحقيق، ثمّ إنّ أبناء الزوايا والقبائل المرابطية لا ينتمون عادة إلى الطرق الدينية.

---

(97) Sessions, Jeniffer, « Débattre de la licitation…*op. cit.*
(98) *La Tunisie Française*, 3 juin 1906, « La vérité sur Amor Ben Othman ».
(99) Chérif, M. H., « Les mouvements paysans…*op. cit.*
(100) « La vérité sur Amor Ben Othman…*op. cit.*
(101) Garrot, Henri, « L'islamisme et son action en Berbérie…*op. cit.,* p. 187.

عندما تمّ إيقاف يعقوب كانت أولى كلماته قبل الدخول في حالة من الهذيان: "أنا درويش مهبول"، لكنّ التقرير الطبي الدقيق الذي أعدّه أطباء فرنسيين بالجزائر بيّن أنّه لم يكن يدّعي الخبل ولم يكن فاقدا لمداركه العقلية أصلا، وأنّه لم يكن يعاني من أعراض الهستيريا أو الصرع، وثبت من ناحية أخرى أنّ عمّه كان مختلّ المدارك العقلية.([102]) وكان عمر بن عثمان شبه معتوه لا يتمتّع بكامل مداركه، وكان في نظر سكان دوّاره مجنونا ودرويشا،([103]) في حين بيّن التقرير الطبي أنّه عندما بلغ العشرين من عمره أصبح يخرج عاريا في بعض الأحيان ليطوف بين الدواوير حتّى أطلقت عليه صفة "المذهوب".([104]) وفي الحقيقة فإنّ الذهنيّة العامة السائدة آنذاك كانت تميل إلى منح صفة الصلاح والولاية للدراويش السائحين الذين يهذون أحيانا بكلام غير مفهوم ويظهرون علامات الزهد والورع، ولا توجد حدودا دقيقة للفصل بين مصطلح الوليّ بمعناه الشعبي الواسع ومصطلحات الدرويش والمذهوب والمجذوب. وتحيل عبارة المجذوب في التنظيم الطرقي إلى درجة عليا من درجات الجذب في منزلة الإخوان (القناديز بالبربرية) وفيها يرتقي المريد أو السالك إلى حالة بسيكولوجية يختلّ فيها التوازن بين الروح والمادة، وهي لحظة حرجة قريبة من الاختبال تظهر فيها الرؤى الخارقة للطبيعة.([105])

يشترك محمد يعقوب وعمر فضلي في قوّة تأثيرهما على عقول الناس، وذلك على الرغم من كونهما لا يمتلكان لا المكانة العائلية أو الطرقية الرفيعة، ولا الوجاهة الاجتماعية المعتبرة، ولا الثروة أو حتّى المستوى التعليمي.([106]) واعتمدا في سبيل ذلك أساليب متباينة: كان يعقوب شخصا عاديّا ومسالما في الظاهر، ولم يكن له إشعاع يذكر في محيطه، ثمّ بدأت تظهر عليه علامات التشدّد والورع قبل فترة قصيرة من اندلاع الانتفاضة من ذلك المواظبة على إقامة الشعائر الدينية وزيارة الزوايا

---

(102) *La Dépêche Algérienne*, 22 décembre 1902.
(103) « La vérité sur Amor Ben Othman…*op. cit.*
(104) *La Dépêche Tunisienne*, 9 décembre 1906.
(105) Rinn, Louis, *Marabouts et khouan. Etude sur l'islam en Algérie*, Adolphe Jourdan, Libraire-éditeur, Alger, 1884.
(106) *La Tunisie Française*, 8 juin 1906, « Margueritte-Kasserine ».

والنهي عن التدخين ولعب الورق وشرب الخمر،([107]) ولعلّ ذلك كان ردّ فعله الأوّل على حالة البؤس المادي الذي سبّبه الاستعمار الزراعي لعائلته وعشيرته. ووجد خلال ارتياده لوعدتي سيدي بوزار وسيدي بن يحي طريقة مقبولة اجتماعيا للتنفيس عن مكبوت القهر الاجتماعي من خلال المشاركة في حلقات الذكر والرقص الجماعي، التي تؤدّي إلى نوع من الارتياح والنشوة، وتنمّي رابطة التجانس بين الأفراد وتوحّد انفعالاتهم وأحاسيسهم، فيصلون إلى حالة من الهستيريا الجماعية التي تبعدهم عن عالم الوعي والإدراك الحسّي.([108]) ودفعه الانغماس التام في هذه الطقوس إلى الإتيان بأعمال خارقة على غرار ما كان يعرف لدى العيساويّة، كأن يضع يديه في الماء المغلّى أو في النار من دون أن يحترق. وعندما يصل يعقوب إلى حالة قصوى من الجذب، يعمد إلى إدخال أحد الإخوان تحت لحاف برنسه ويعطيه لسانه ليمتصه، فيصبح ذلك الشخص أشبه بالمسحور المسلوب الإرادة، ويدخل في حالة اتّحاد روحي مع منوّمه الذي أخضعه لأوامره وإيحاءاته، فيراه بحجم هائل ويرى نفسه في قلب المعارك ضدّ المسيحيين.([109]) يقول مساعده الأوّل الثعالبي: "لقد سحرني يعقوب بكلامه ولسانه"، أو في عبارة أخرى أدق تعبيرا: "كنت أرتجف أمامه مثلما يرتجف الحمار أمام الضبع".([110])

استغلّ يعقوب هذه القدرة التنويمية والإيحائية ليعلن خلال اجتماع وعدة سيدي محمد بن يحي عن مشروع حركته الانتفاضية، وشرع مساعدوه في إعداد الترتيبات اللازمة كتوفير جواد أصيل وملابس جديدة تليق بمكانته الجديدة، فقد أصبح في نظر أتباعه يعرف باسم "السلطان" و"مولى الساعة" و"سيدي الشيخ".([111])

---

(107) « L’affaire de Margueritte. Avant le procès »…*op. cit.*

(108) زيعور، علي، **الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم. القطاع اللاواعي في الذات العربية**، دار الأندلس، بيروت، 1984، ص. 68.

(109) *Le Petit Parisien*, 9 décembre 1902, Frello, Jean, « Un illuminé ».

(110) *La Dépêche Algérienne*, 16 et 22 décembre 1902.

(111) ذكر المعمّر جينوديه في المحكمة أنّ الثعالبي عندما يريد مخاطبة يعقوب يقول له "سيدي الشيخ"، وأضاف أنّه هو نفسه كان يناديه بذلك الاسم، وأنّه لم يسمع من يطلق عليه اسم "السلطان".

استعمل عمر بن عثمان طرقا مغايرة للتأثير تتمثّل في إظهار الكرامات وعلامات التزهّد واستعمال غريب الكلام، إضافة إلى ما كان يوحي به مظهره العام وشكله الفيزيولوجي. قال المحامي طيبي خلال محاكمة ثوّار الفراشيش: "الإدارة هي التي اختلقت الوليّ"،([112]) ونضيف بدورنا إنّ الفراشيش هم الذين صنعوا قبلها هذا الوليّ المتدروش. يفيد تقرير القايد أنّ بعض الفراشيش زاروا في صائفة 1905 زاوية عثمان بن الحفصي في برّ أولاد سيدي عبيد بنواحي تبسّة، والتقوا هناك بالشاب عمر بن عثمان، الذي نجح في إقناعهم – بتحريض من صاحب الزاوية على الأرجح- بأنّهم مصابون بلعنة قديمة بسبب سوء معاملتهم للشيخين مصطفى بن عزوز وعلي بن الحفصي جدّ عثمان المذكور، وأوهمهم بأنّه قادر على تطهيرهم ومنطقتهم من هذه اللعنة إذا كفّروا عن ذنبهم وأحضروا له مائة شاة وفرسا وبرنسا أحمر.([113]) عاد الفراشيش إلى مضاربهم وجمعوا هذه الهديّة الثمينة التي آل النصيب الأكبر منها إلى عثمان بن الحفصي، وهو ما أغضب الوليّ الذي دعا عليهم وتوعّدهم بشرّ العقاب هم وصاحب الزاوية الذي غمطه حقّه. وصادف أن حلّت بعض المآسي بالطرفين ومنها وفاة ابن عثمان بن الحفصي ونزول الثلوج بكثافة غير معهودة في شتاء 1906، وأوّلها الفراشيش على أساس أنّها دليل على صدق كرامات عمر بن عثمان، فقاموا بجلبه إلى فوسانة واحتضنوه بينهم وأغدقوا عليه الهدايا والعطايا راجين نيل بركته وعفوه. وأصبح ملجأهم في حلّ مشاكلهم، إذ اشتكوا من الجفاف فنزلت المطر بغزارة في أواسط أفريل بفضل بركة دعائه كما تصوّروا، ثمّ تذمّروا من السيول فطلبوا منه التدخّل، فصادف أن تحقّقت أمنيتهم مرّة أخرى، وأصبح عمر بن عثمان "صانع المعجزات وصاحب الكرامات" وليّا صالحا يقدّسه الفراشيش. وممّا زاد في تأكيد هذه الصورة، ما كان يظهره من زهد وورع وتعفّف، فهو لا يأكل إلّا قليلا ولا يخالط النساء، إضافة إلى مظهره الغريب الذي يوحي به وجهه الطفولي وأطرافه الأنثوية وشعره الطويل، وتعمّده إخفاء وجهه بطربوش برنسه الذي يحجبه عن الأعين، وميله إلى

---

(112) *La Dépêche Tunisienne*, 12 décembre 1906.

(113) أ- و. ت.، س. E، ص. 550، م. 16...**نفس المصدر**.

الصمت والتأمّل، وكلامه الغامض القابل لشتّى التأويلات.([114]) ملك عمر بن عثمان قلوب الفراشيش وتمثّل مشاكلهم وطموحاتهم، فطلبوا منه المزيد أي أن يخلّصهم من الخدمة العسكرية ولم لا من سيطرة المستعمرين،([115]) فوعدهم بطرد الفرنسيين وفرض راية الإسلام، وينسب إليه قوله:

نا عمر ونحب العمارة نطهّر البلاد ونخرّج النصارى

ويبدو أنّ هذا التحوّل المفاجئ من الديني العقائدي إلى السياسي تمّ بتأثير من المتشدّدين الملتصقين به، وتؤكّد التقارير المختلفة أنّ الوليّ كان أداة طيّعة بأيدي المقدّم علي بن صالح الشيخ المعزول بسبب اتّهامه بالتهريب، وبدرجة أقلّ مسعود الحنديري والوليّ الكعباشي.([116]) وتطرح نفس الملاحظة بالنسبة ليعقوب، إذ كان حسب البعض آلة بأيدي الثعالبي الذي يعمل بدوره لفائدة طوائف دينية قويّة وبعيدة (الطريقة الطيبية)، وعبّر المتّهم الثالث بوركيزة عن الأمر بطريقة مغايرة حين قال: "يعقوب هو القائد لكن هو نفسه كان مسحورا من قبل الثعالبي. الثعالبي هو الساحر الأكبر".([117]) ولعلّ الأمر لا يتعدّى تقسيم الأدوار بين يعقوب القائد الروحي والمسؤول الأوّل عن الحركة، والثعالبي الذي تكفّل بالتمويل والتنظيم وتقدّم المسيرة في جلّ مراحلها.

3-2- الثائر والدرويش.

نجح يعقوب وعمر بن عثمان في خلق جوّ مشحون تطغى عليه الحماسة، وأقنعا أتباعهما أنّ رصاص المسيحيين لن ينال منهم، في حين أنّ عصيّهم ستتحوّل إلى

([114]) التيمومي، الهادي، **انتفاضة...نفس المرجع**، ص. 151- 153.

([115]) العجيلي، التليلي، **الطرق الصوفية والاستعمار بالبلاد التونسية (1881- 1939)**، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1992، ص. 160.

([116]) انظر تقرير بول غوتييه الكاتب العام المساعد للحكومة وتقرير البارون دانتوار المعتمد لدى الإقامة العامة في: أ- **و. ت.**، س. E، ص. 550، م. 16...**نفس المصدر**. وصرّح قايد الفراشيش في المحكمة أنّ عمر بن عثمان كان آلة بأيدي الكعباشي والمقدّم، ولكنّه كان واعيا بما يفعل لأنّه يحبّ أن تنسب إليه الكرامات.

([117]) - *La Dépêche Algérienne*, 25 décembre *1902.*

بنادق تطلق الرصاص على "الروامة".([118]) ونشير في هذا السّياق إلى أنّ هذه الفكرة قديمة لم يبتكرها يعقوب، إذ سبق للثائر الجزائري "بومعزة" أن ادّعى سنة 1844 أنّ رصاص الفرنسيين لا يؤثّر فيه،([119]) وفي سنة 1853 ظهر بنواحي تيممون الداعية "سرور" الذي كان "يزعم أنّ بارود العدوّ يصير ماء في بنادقهم".([120]) ولكن كيف كان دور يعقوب وعمر بن عثمان الفعلي عند انطلاق الحركتين؟

شارك يعقوب بصفة مباشرة في كلّ مراحل انتفاضة ريغة، وكان دوره القيادي جليّا وهيمنته الروحية كاملة لأنّ الثوّار كانوا تحت سيطرته، وكانوا يردّدون نفس الأصوات التي ردّدوها في حلقات الذكر. كان يتميز عن باقي المشاركين بجواده وملابسه ممّا زاد في هيبته، وكان يكتفي بإعطاء الأوامر والإشراف على أسلمة الأسرى وتقرير مصيرهم، ولا يشارك شخصيّا في تنفيذ عمليات الضرب أو القتل والنهب، ولم يكن بمقدوره مع ذلك منع حصول بعض التجاوزات وحالات الانفلات الناجمة عن الهستيريا الجماعية. ولم ينسحب من أرض المعركة إلّا بعد إصابته بجراح خلال الاشتباك مع الجنود، وتمّ القبض عليه بعد أيّام قليلة عن طريق أحد الحرّاس الريفيين، فلم يبد مقاومة تذكر. أمّا عمر بن عثمان فلم يبرح خيمته خلال الهجوم على القصرين، ولم يكن مؤثّرا خلال الاجتماع التحضيري للهجوم على تالة، وظلّ في دوّار فرحات بفوسانة بعد أن خرجت المسيرة إلى أن جاءه عبد السلام قعيد خليفة تالة واستدرجه بواسطة الحيلة إلى مقرّ المراقبة المدنيّة، وفي الطريق انفضّ عنه أصحابه بعد أن بلغهم مقتل طلائع السائرين إلى تالة، وتمّ القبض عليه بمجرّد وصوله. ويبدو

---

(118) عندما سأل رئيس المحكمة عمر بن عثمان حول ادعائه حصول معجزة في تالة تتمثّل في تحوّل عصيّ الثوّار إلى بنادق مقابل تحوّل بنادق الفرنسيين إلى خراطيم مياه، أجاب: "هذا عبث، فالعصا لا تتحوّل أبدا إلى بندقية" (الدبيش تونيزيان بتاريخ 26 نوفمبر 1906). أمّا يعقوب فقد كانت إجابته عندما سئل بخصوص قوله لأتباعه إنّ أسلحة الفرنسيين لا يمكن أن تصيبهم بنيراها: "كيف أقول هذا؟ ألم أتلق إصابة جارحة؟" (الدبيش ألجيريان بتاريخ 22 ديسمبر 1902).

(119) - بوعزيز، يحي، "المقاومة المسلحة في جبال الونشريس وزكار والظهرة وحوض الشلف ضدّ الاستعمار الفرنسي: 1840- 1864"، في: **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1999، ص. 158.

(120) **المبشّر**، 15 أفريل 1853.

عمر بن عثمان هنا أقرب إلى صورة الوليّ أو الشيخ الداعية منه إلى الثائر السياسي، وينطبق عليه ما كتبه علي زيعور:

"يشجّع الصوفي غيره على الجهاد، ويقدّم له المزاعم الاشباعية اللفظية. وينتصر الصوفي مناميا، أي في رؤياه ويقصّها على الأسماع فكأنّه شارك. إنّه يعارك العدوّ بمختلقه... هو يقعد ويحارب الآخرون عنه".(121)

كان تصرّف يعقوب وفضلي في المحكمة على طرفي نقيض، ولم يشتركا إلّا في إنكار جلّ ما نسب إليهما من أدوار. ذكر يعقوب خلال استجوابه المطوّل أنّه شخص مريض يسمع أصواتا ربّانية، وأنّه كان خلال الحركة فاقدا لعقله ووعيه مع بعض فترات من الصحو، وأنّ هدفه الوحيد كان السير إلى زاوية بزناس. ولئن لم ينكر مشاركته في الحركة من بداية التحضير إلى نهايتها، فإنّه أنكر كلّ التهم الموجهة إليه، فهو إمّا لا يتذكر لأنّه كان في حالة غياب عن الإدراك، أو لم ير ولم يسمع لأنّه كان منغمسا في السير والذكر، أو لم يستطع التدخّل لأنّ المنتفضين كانوا في حالة حماسة شديدة. وكان يذكّر في معظم إجاباته بأنّ همّه الوحيد خدمة الله، وبأنّه يرفض الظلم. وأكّد أيضا في بعض إجاباته أنّه تعرّض وعائلته إلى عسف الإدارة والمعمّرين والمرابين، وأنّ أراضيهم نهبت فاضطرّ إلى العمل كأجير لدى المعمّرين ليعيل زوجته وابنه.(122) وقد اتّفقت جلّ الصحف الفرنسية أنّ استجواب يعقوب شكّل خيبة أمل كبرى، وعبّر عن ذلك "هنري فاران" أحسن تعبير فقال: كان "نبيّ مارغريت" أو "السلطان" كما يسمّيه أصحابه، مجرّد بائس فقير ورجل ورع لا يحمل فكرا مميّزا ولا أسلوبا مقنعا، وكان فوق ذلك كاذبا وخائفا، وكانت حركاته رتيبة ومتذللة. وحتّى عندما تحدّث عن والده وكيف صودرت أراضيه حتّى غدا فقيرا معدما، فإنّه لم يعبّر عن كلماته بصوت الثائر الذي يحاجج، بل قالها بصوت كئيب لمتسوّل يستجدي الشفقة. ونحن نأسف –يضيف كاتب المقال– لأنّه لم يمثّل صرخة الثوّار كما نعرفها

---

(121) زيعور، علي، **الكرامة الصوفية...نفس المرجع**، ص. 127.

(122) نشر النصّ المفصّل لاستجواب يعقوب في عدّة جرائد أبرزها: "الدبيش ألجيريان" (21 و22 ديسمبر 1902) و"البتي ماريديونال" Le Petit Méridional (20 و21 ديسمبر 1902).

بفرنسا، لقد أنكر كلّ شيء وتنصّل من المسؤولية، وحاول الظهور بمظهر القدّيس المتعفّف.([123])

إلّا أنّ هذا الحكم الفوري على شخصيّة يعقوب سرعان ما تبدّد، لأنّه أخذ الكلمة من جديد بعد انتهاء أقوال الشهود ومرافعات المحامين، وكان هذه المرّة أكثر صراحة وجرأة، ونذكر من جملة ما قال: عندما غادرنا مقرّ إقامة الثعالبي لم يكن في نيّتنا أن نقتل أيّ شخص، وللأسف فإنّ الحرس الريفي بادر بإطلاق النار. وبيّن المساعي التي قام بها طيلة الحركة للحدّ من العنف، ثمّ استعرض بالتدقيق ما تعرّض له الأهالي من نهب واستغلال من قبل المعمّرين والمضاربين والمرابين وإدارة الغابات، وختم قائلا: "تقولون إنّني القائد، وإنّني أعطيت الأوامر، فليكن...وأرجو من عدالتكم العفو عن كلّ هؤلاء المساكين الموجودين بجانبي، وأنا أتحمّل مسؤولية كلّ ما حدث".([124]) واعتبرت "الأخبار" أنّ هذه المشاعر النبيلة التي عبّر عنها البروليتاري الثائر لا يمكن أن تصدر عن قاتل متوحش أو عن ممثّل لعقليّة أقلّ تطوّرا.([125])

تصرّف عمر بن عثمان في المحكمة بطريقة توحي بأن لا علاقة له بالحركة الانتفاضية، فادّعى أنّه لم يسمع بمهاجمة القصرين إلّا بعد اعتقاله، أمّا الهجوم على تالة فهو في نظره مجرّد "قضيّة مختلقة" « Fumisterie »، وهو نفس ما عبّرت عنه جريدة "بريد تونس".([126]) أنكر عمر بن عثمان كلّ شيء، فهو ليس وليّا ولم يدّع ذلك، ولم يحرّض على الجهاد بل إنّ الوليّ الكعباشي هو من فعل ذلك. وكذّب كلّ الشهود معتبرا أنّ كلّ التونسيين كاذبون عكس الجزائريين، واتّهمهم بأنّهم قابلين للارتشاء ويمكن أن يغيّروا شهادتهم بسهولة مقابل المال. وكان يبالغ في الاعتداد بنفسه إذ طالب بمعاملة جيّدة في السجن تليق بمكانته بل طالب حتّى بتعويض عن

([123]) *Le Figaro*, 20 décembre 1902, Varennes, Henri, « Yacoub le sultan ».

هنري فاران هو الاسم المستعار للمحامي والصحفي الفرنسي المتخصّص في التحقيقات القضائية هنري فونوفان Henri Vonovan.

([124]) *Akhbar*, 8 février 1903, « Dernières paroles ».

([125]) *Ibid.*

([126]) *Le Courrier de Tunisie*, 3 mars 1906, « Une vaste fumisterie ».

أيّام الاعتقال، ويكثر من استعمال الأمثلة والاستعارات في حديثه.([127]) ولم يحظ بأيّ نوع من التعاطف لا في صفوف الحاضرين بالمحكمة، ولا داخل الرأي العام، ولا في الصحافة المحلية والفرنسيّة باستثناء ما كتبته حوله الصحفية "ماريام هاري"، التي شبّهته بالبطلة القدّيسة "جان دارك"، واعتبرت أنّ مشاعر اليأس والرغبة في حصول المعجزات هي التي جعلت الفراشيش يصنعون من هذا "الشلو البشري" مسيحا مخلّصا.([128]) وحظي يعقوب وصحبه بالمقابل بتعاطف كبير من سيّدات مدينة مونبلييه، فتهاطلت عليهم الهدايا والمساعدات المالية والغذائية.

استمرت محاكمة منتفضي مارغريت بمونبلييه (فرنسا) فترة طويلة امتدت من 15 ديسمبر 1902 إلى 8 فيفري 1903، ودارت محاكمة منتفضي القصرين بسوسة (تونس) من 22 نوفمبر إلى 12 ديسمبر 1906. كان الحكم الصادر ضدّ يعقوب مشدّدا: الأشغال الشاقّة مدى الحياة مع نقله إلى سجن كايان بمستعمرة غويانا، في حين نال عمر بن عثمان حكما مخفّفا: الأشغال الشاقّة لمدّة 10 سنوات مع الإبعاد لمدّة 20 سنة ولم يتم نقله إلى معتقل كايان نظرا لوفاته بعد فترة قصيرة من محاكمته. ولكن عموما كانت الأحكام الصادرة ضدّ منتفضي مارغريت (4 أحكام بالأشغال المؤبّدة وتبرئة 81 متّهما) أكثر تسامحا من الأحكام الصادرة ضدّ منتفضي القصرين: الإعدام لثلاثة متّهمين ثمّ وقع الحطّ من الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة بقرار من رئيس الجمهورية، الحكم بالأشغال الشاقة مدى الحياة على متّهمين آخرين، الأشغال الشاقة لمدّة 20 سنة على 7 متّهمين وغير ذلك، وتمّ ترحيل كلّ هؤلاء إلى معتقل كايان في جويلية 1907.([129]) ويفسّر هذا التسامح النسبي الذي صدر عن محكمة مونبلييه بعدّة عوامل أبرزها الدور الكبير لمحامي يعقوب "موريس الأدميرال" الغوادلوبي المستقر بالجزائر، الذي فرض تحويل المحاكمة من الجزائر إلى فرنسا، ودافع باستماتة وحماسة على المنتفضين الذين دفعهم الاضطهاد الاستعماري والنهب

([127]) حول استجواب عمر بن عثمان انظر "الدبيش تونيزيان" بتاريخ 26 نوفمبر 1906.

([128]) *Le Temps,* 23 février 1907, Harry, Myriam, « Impressions tunisiennes. Autour de l’affaire de Thala-Kasserine ».

([129]) "جناة القصرين"، **الزهرة**، 29 جويلية 1907.

العقاري إلى التمرّد، وكان لمداخلته صدى كبيرا في الأوساط القضائية والإعلامية.([130]) وساهم طرح مسألة مارغريت في البرلمان الفرنسي في كشف ملابساتها الحقيقية وكسب تعاطف جانب مهمّ من الرأي العام، لذلك تمّ اعتبارها قضيّة سياسية بامتياز. ولم تجر الأمور في محكمة سوسة بنفس القدر من الإثارة، إذ شدّد النائب العام منذ البداية على ضرورة عدم تكرار نفس الخطأ الذي وقع خلال محاكمة ثوّار مارغريت مشيرا إلى روح التسامح التي ميّزتها. ورفضت هيئة محكمة سوسة اعتبار القضيّة ذات طابع سياسي فقدّمتها على أساس أنّها قضيّة حقّ عام، وكانت مرافعات المحامين باهتة مقارنة بمرافعات المحامين الفرنسيين في مونبولييه.

في شهر ماي 1905 أعلنت جريدة "التلّ" وفاة يعقوب بسجن كايان، وكان الثعالبي قد توفّي قبله بفترة قصيرة. وذكرت أنّ بعض أهالي ريغة جمعوا الأموال اللازمة للسفر إلى غويانا من أجل جلب جثمانه ودفنه بالجزائر.([131]) ونبّه بعض الكتّاب لخطورة الأمر لأنّه يشكّل تحديّا للمعمّرين، ولأنّه يمكن أن يحوّل قبر يعقوب إلى مزار يقدّسه أتباعه،([132]) ثمّ بيّنت جريدة "الدبيش ألجيريان" أنّ يعقوب توفّي بالفعل يوم 18 مارس 1905، ولكن يستحيل جلب رفاته إلى الجزائر لأنّ العادة الجارية تقتضي بإلقاء جثث المساجين المتوفين بكايان في البحر لعدم وجود مقبرة هناك.([133]) والمهمّ في الأمر أنّ يعقوب ظلّ حيّا في نظر أتباعه الذين رفعوه إلى مرتبة الوليّ الصالح ثمّ القدّيس بعد وفاته، أمّا عمر بن عثمان الذي توفّي بدوره في سجن سوسة خلال شهر مارس أو ماي 1907 فإنّه لم يثر اهتماما يذكر، ونكتفي بما كتبته جريدة "النصيحة" وهي من الجرائد القليلة التي علّقت على الخبر بقولها: "أفادت

---

(130) Phéline, Christian, *Un guadeloupéen à Alger. Me Maurice L'Admiral (1864- 1955)*, Editions Riveneuve, Paris, 2014.

(131) *Le Tell*, 20 mai 1905, « La mort de Yacoub ».

(132) *La Démocratie algérienne*, 23 mai 1905, Girou, H., « Les cendres de Yacoub ».

(133) *L'Avenir de l'Est*, 17 août 1905, « Les restes de Yacoub ».

أخبار سوسة وفاة الدرويش عمر بن عثمان دجّال تالة والجالب عليها الشرّ والمتسبّب في إزهاق تلك النفوس البريئة".([134])

الخاتمة:

تتّضح لنا في نهاية التحليل أهميّة مظاهر التشابه بين انتفاضتي ريغة والفراشيش وتنوّع عناصره، ممّا يضفي على المقارنة كلّ مقوّمات المعقوليّة المنهجية والعلمية. يبدأ هذا التشابه من التقارب الملاحظ في مستوى خصوصيّات الإطار الطبيعي والبشري الحاضن للحركتين، ويمتدّ إلى مستوى الخصائص التنظيمية والمواصفات العامة التي كانت شبه متطابقة في الحالتين. وتحيل هذه الخصائص إلى تنظيم عتيق وقع الارتداد بواسطته إلى ما هو أبعد من القبيلة ومؤسّساتها وأعيانها، أي إلى الزاوية والتنظيم الطرقي في أبسط تجلّياته، حيث يلعب الوليّ المتدروش أو المجذوب الدور الرئيسي في خلق الجوّ الثوري المهيّأ للانتفاض المباغت والعنيف. يتواصل هذا التشابه أيضا في نوعيّة الممارسات الثورية، أي جملة الأفعال وردود الأفعال الصادرة عن المنتفضين في مجرى حركتهم الانتفاضية، ليصل إلى وحدة الأسباب الدافعة لانتفاضة قبيلتي ريغة والفراشيش، والتي كشفت لنا أنّ التعصّب الديني كان مجرّد عامل ثانوي مقارنة بالعوامل العميقة المتمثّلة في التسلّط الإداري والنهب العقاري.

يقودنا تفصيل العناصر المؤلّفة بين الحركتين، إلى أن نؤكّد بالضرورة قابليّتها للتصنيف ضمن طبيعة واحدة، ففي الحالتين يتعلّق الأمر بقيام فلاحين (عملة ومزارعين) مفقّرين ومستغلين بانتفاضة تبدو تقليدية في شكلها، لكنّها ذات بعد وطني وتقدّمي جليّ ضدّ الاستعمار الكولونيالي والتوطيني والامبريالي، وضدّ رموزه، وضدّ الاستغلال الاستعماري الهادف إلى ضرب مقوّمات التنظيم القبلي العرفيّة والمادية.

يعكس هذا التشابه وجود ذهنيّة جماعية نابعة من خلفيّة ثقافية مشتركة تقوم على الإيمان بالغيبيّات والمعجزات والكرامات ومظاهر الولاية والصلاح، ترفض الظلم تحت لواء هذه المعتقدات، وتتوق إلى الخلاص بواسطتها. وساهم الاستعمار في تكريس

([134]) "وفاة الدرويش عمر بن عثمان"، **النصيحة**، 17 ماي 1907.

هذا الواقع من خلال إهماله النهوض بالتعليم ومقاومة الأميّة، وفي إحياء هذه المعتقدات بسياسته القائمة على الاستغلال والتسلّط.

أتاحت لنا المقارنة من ناحية أخرى، التعرّف على مظاهر الاختلاف بين الحركتين، إذ بدت حركة مارغريت أكثر تنظيما وتطوّرا في بعض جوانبها، حتّى أنّ بعض المعاصرين صنّفوها ضمن أولى الانتفاضات البروليتارية في المستعمرات. يتعلّق الأمر ببروليتاريا فلاحية لم تنتظم ولم تفرز فكرا ثوريّا متقدّما، ولكنّها كانت واعية بحجم الاستغلال الاستعماري، فتحركت بوحي من الوعي الجنيني بواقعها المادي المتردّي الناجم عن سياسة النهب الاستعماري، ولكن بأشكال تنظيمية بدائية ومن دون مشروع واضح للتغيير. ويعود هذا التفاوت بداهة إلى اختلاف مستويات التقدّم وطبيعة علاقات الإنتاج السائدة في المجالين، إذ تميّز مجال قبيلة ريغة ودوّار عدلية بحضور استعماري كثيف مقارنة بمجال الفراشيش، ورافق هذا الحضور بروزا لافتا لمختلف مظاهر الاستعمار الاستيطاني. ولعلّ من أبرز علامات هذا التفاوت في التطوّر أنّ يعقوب كان ثائرا أكثر منه درويشا، في حين كان عمر بن عثمان أقرب إلى الدرويش المجذوب من الثائر السياسي.

د. فوزي السباعي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس